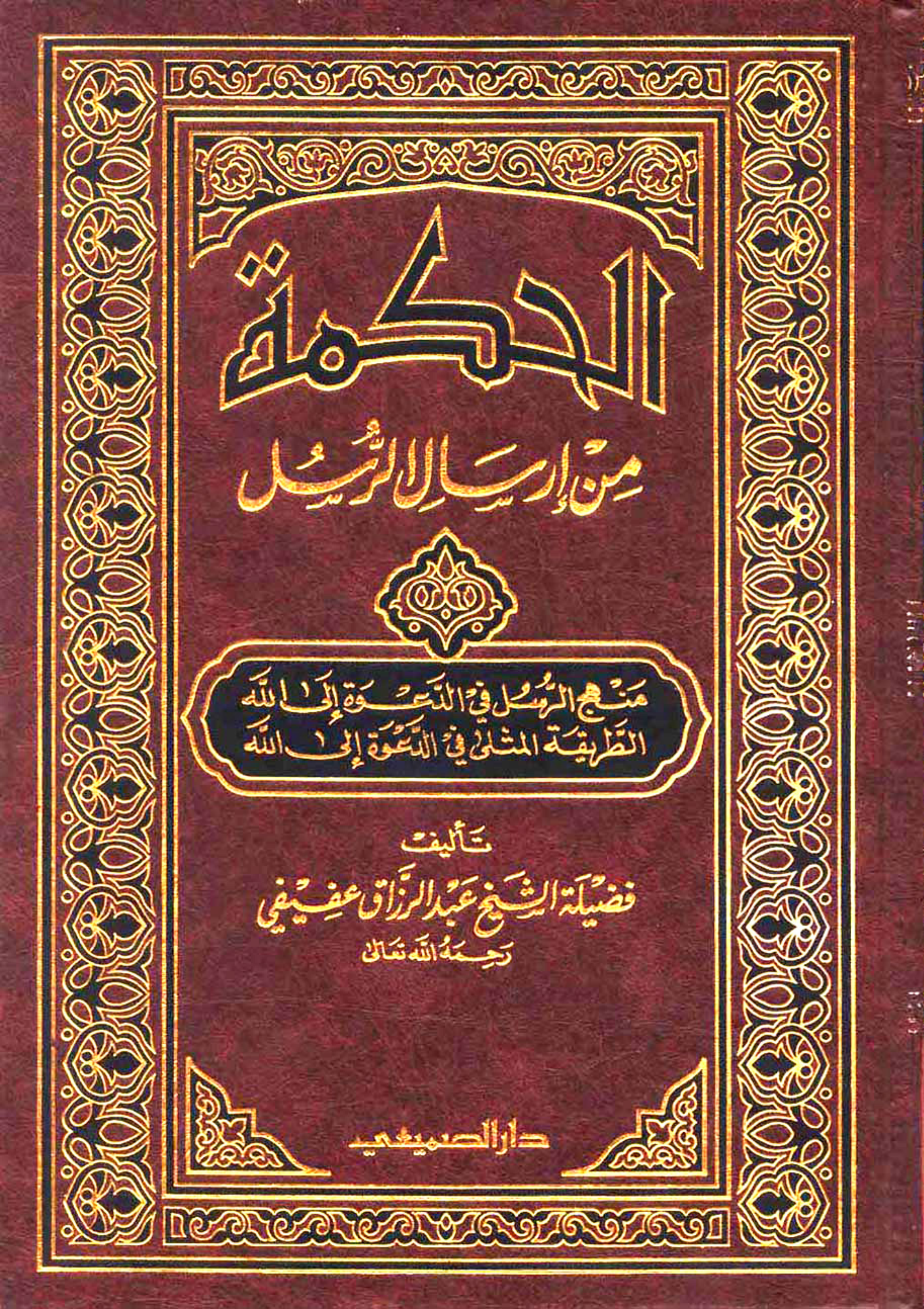
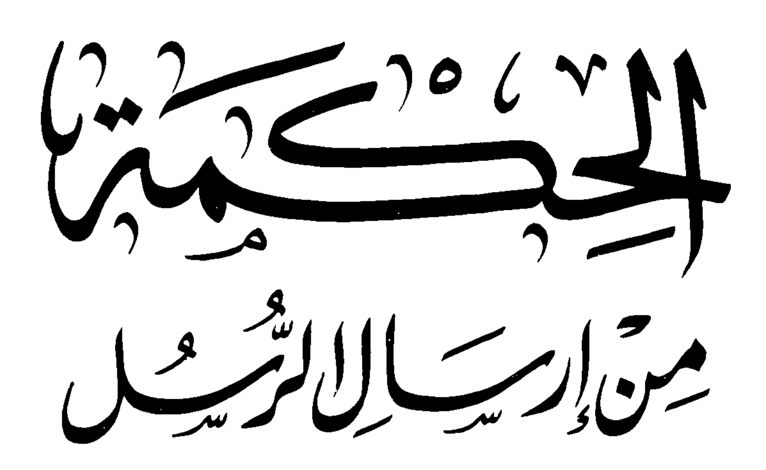

الحكمة
من إرسال الرسل
منهج الرسل في الدعوة إلى الله
الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله
تأليف
فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي
رحمه الله تعالى
دار الصميعي
الحكمة من إرسال الرسل
الشيخ عبد الرزاق عفيفي



الحكمة من إرسال الرسل

منهج الرسل في الدعوة إلى الله
الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله

تأليف

فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي

رحمه الله تعالى

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٢٠ هـ

دار الصميعي للنشر والتوزيع
هاتف وفاكس: ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩
الرياض - السويدي - شارع السويدي العام
ص.ب: ٤٩٦٧ - الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة موجزة للعلامة عبد الرزاق عفيفي

رحمه الله تعالى

الشيخ، القدوة، الصالح، الورع، التقي، الزاهد، بقية السلف، العلاّمة، المدرس، المجتهد، المَرْجع، الداعي إلى الله، شيخ علماء الوقت بالمملكة، على هٰذا أجمع الذين كتبوا عنه من أقرانه وتلامذته ومحبيه، ذٰلكم هو الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله، وهٰذا هو اسمه الذي اشتهر به.

أما اسمه الحقيقي؛ فهو عبد الرزاق عفيفي عطية عبد البر شرف الدين النوبي.

ولد رحمه الله عام ١٣٢٣هـ الموافق ١٦ / ١٢ / ١٩٠٥م بقرية شنشور، مركز أشمون منوفية؛ إحدى محافظات مصر، ونشأ في بيت دين وحزم واجتهاد؛ فحفظ القرآن الكريم بالقرية، ثم انتقل إلى الأزهر؛ فنال العالمية عام ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣٢م، ثم شهادة التخصص في الفقه وأصوله (دكتوراه بالمعنى الحديث) عام ١٣٥٥هـ ـ عام ١٩٣٦م، وعين مدرساً بمعهد شبين الكوم التابع للأزهر سنة ١٩٣٧م، وكان يلقي المحاضرات بالجمعية الشرعية، وكانت تكتظ بالمستمعين.

ورغم أنه كان يلقي هٰذه المحاضرات في مجتمعات ألفت كثيراً من البدع وتعايشت مع الخرافات على أنها من الدين؛ إلا أنه بأسلوبه الجذاب المستند إلى الدليل القوي والحجة القاطعة، وبالرفق في نقد ما عليه الناس من غير تجريح ولا فظاظة في القول ولا إنكارٍ سافر ولا تنطع في النهي؛ بهٰذا كله وبما آتاه الله من رحابة صدر ودماثة خلق استطاع أن يجمع حوله الجمهور؛ فيحبونه، ويستجيبون لدعوته السلفية، ويقتنعون بآرائه ومذهبه.

ثم عُين الشيخ رحمه الله بمعهد الإسكندرية الأزهري، فاستأنف فيها ما كان ابتدأه في شبين الكوم من دروس عامة يدعو فيها إلى التمسك بالعقيدة الصافية المستفادة من هدي الكتاب والسنة وعمل سلف هٰذه الأمة.

وفي هٰذه الفترة اختير الشيخ لرئاسة جماعة أنصار السنة المحمدية بالإسكندرية، ونائباً لرئيسها العام، ثم بعد وفاة الشيخ حامد الفقي رحمه الله تولى رئاسة الجماعة.

وهٰكذا ذاع صيت الشيخ حتى وصل مسامع العلماء في المملكة أيامها؛ فحرص الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة رحمه الله على استقدامه، وكان ذٰلك على يد الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع رحمه الله سنة **١٣٦٨هـ**، وكان محل ثقته وموضع مشورته، وكان يعتمد رأيه في المناهج الدراسية والكتب التي تقرر على الطلبة، وكانت له حلقة في مسجد آل الشيخ بالرياض أول قدومه إليها، ودرسٌ يوم الأربعاء عند الملك عبد العزيز غفر الله له وأصلح عقبه، ثم اختاره الشيخ محمد بن

إبراهيم عضواً في الرئاسة العامة للمعاهد والكليات.

وممن تعاون معه الشيخ محمد علي عبد الرحيم رحمه الله على تأسيس المعاهد العلمية بالمملكة، ثم شارك في تأسيس كلية الشريعة واللغة العربية بالرياض، ثم المعهد العالي للقضاء الذي كان رئيساً له وأستاذاً به، ثم كانت له المشاركة الفعالة في وضع مناهج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم ساهم في تأسيس الرئاسة العامة للبحوث العليمة والإفتاء والدعوة والإرشاد، وكان واحداً من أعضائها المبرزين، ثم اختير رحمه الله نائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة وعضواً في هيئة كبار العلماء منذ تأسيسها سنة **١٣٩١**هـ، وظل عطاؤه بها متصلاً إلى وفاته رحمه الله.

ورغم ما أسند إليه من أعمال إدارية وما تقتضيه من مسؤولية المناصب الرفيعة التي شغلها؛ إلا أنه لم يترك التدريس والإفادة؛ فهو رحمه الله من القلائل الذين بورك في وقتهم وعملهم؛ فقد درس ابتداءً في دار التوحيد بالطائف، والمعهد العالي للقضاء، وكلية الشريعة واللغة، والمعاهد العلمية، ثم استمر في الإشراف والمشاركة في مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه وإلقاء الدروس العامة في المساجد وأيام الحج.

وكان في هٰذا كله نسيج وحده في البيان والتبليغ، شهد له بذٰلك كل من تتلمذ له أو حضر دروسه مع القيام التام على كثير من العلوم الشرعية؛ فقد كان رحمه الله ذا باع طويل في التفسير وعلوم القرآن، وله القدح المُعَلَّى في التوحيد والعقائد ومذاهبه، واليد الطولى في أصول

الفقـه ومـدارسـه؛ فهو أحد فرسانه، هٰذا إلى مشاركة قوية في العربية وعلومها وغير ذٰلك من علوم تراثنا المجيد.

وكان عزوفاً عن الكتابة والتأليف؛ فلم يكن له مع ما أوتي من سعة العلم إلا الشيء اليسير، مثل تعليقه على المقرر من «تفسير الجلالين» و«مـذكـرة في التوحيد»، جمعها بعض تلاميذه، والتعليق على كتاب «الإحكـام في أصول الأحكام» للآمدي، وإحالات على كتاب «شرح الطحاوية» إلى بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهمـا الله (طبعة المكتب الإسلامي عام ١٤٠٨هـ)، وتعليق على كتـاب «العلو» للذهبي عنـدما كان مدرساً بمصر، ومقالات في «مجلة الهــدي النبـوي» التي صدر عددهـا الأول سنـة **١٣٥٦**هـ، و«مجلة التـوحيد»، فضلاً عن مقالاته في «مجلة التوعية» بمكة وبحوثه وفتاويه الكثيرة التي يوجد أغلبها فيما صدر عن اللجنة الدائمة للبحوث العليمة والإفتاء.

لقـد كان اهتمـامـه الأول تربية الجيل وتخـريج العلماء (حملة الأمانة) التخريج الذي يؤهلهم لحملها.

مجلس فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله:

يصف مجلسه ابنه محمود قائلاً:

كان مجلس الشيخ مهيباً، لا مجال فيه للهو الحديث ولا الخوض في الأعـراض وانتهـاك الحرمات وكثرة القيل والقال وانتقاص الناس، مجلس يغلب فيه التوجيه والإرشاد والنصيحة وحسن المشورة والبحث

العلمي فيما يعرض من مسائل والإجابة عما يقدم من استفتاء، فإذا ما أخذوا في الحديث عن الدينا؛ كان الحديث بريئاً، حديث عن الأمطار وأحوال الجو من حر وبرد وزروع وضروع، وأمثال هٰذه الأمور من الكونيات التي يثير البحث فيها العبرة ويعرف الإنسان بنعم ربه. . .

طُبع الشيخ على الخلال الحميدة والأخلاق والصفات الكريمة؛ فكان رحمه الله صادق اللهجة، عف اللسان، حليماً، واسع الصدر، كثير الصمت، أميناً على السر، متمهلاً في حديثه، متأنياً في البحث وإبداء الرأي، مع بُعد النظر، والعمق في التفكير، يحب أن يسمع أكثر مما يقول، يرى أن ما يفوت بالتأني أخف خطراً وأقل ضرراً مما ينجم في الغالب من سوء عاقبة العجلة ووخيم مغبتها، يسعى في الخير للفرد والجماعة، ويجتهد في تحصيل ما يراه مصلحة دون أن يعلن عن عمله أو يتحدث عن نفسه حديث فخر وإعجاب لما له من محامد ومآثر.

مرض وفاته:

إثر وعكة صحية لمدة تسعة أيام انتقل إلى جوار ربه يوم الخميس ٢٥ ربيع الأول ١٤١٥هـ، وقد صُليَّ على جنازته عقب صلاة الجمعة ٢٦ ربيع الأول ١٤١٥هـ في الجامع الكبير بالرياض، حيث صلى عليه خلق كثير لا يحصى عددهم، وقد ازدحمت المواقف والشوارع المؤدية إلى المقبرة بالناس والسيارات، خصوصاً بعد ما انطلق الناس بسياراتهم إلى المقبرة، ومن المشيعين من ذهب مرتجلاً إلى المقبرة خوفاً من الزحام، وقد حضر دفنه بمقبرة العود عدد هائل من البشر غالبيتهم من العلماء والمشايخ وطلبة العلم، وتلامذة الفقيد يغمرهم الحزن على

فراقه، داعين له بالمغفرة والرحمة.

وقد قام بالعزاء فيه كبار علماء العالم الإسلامي، وخادم الحرمين الشريفين، وولي عهده، والنائب الثاني.

فاللهم! اغفر لعبدك عبد الرزاق عفيفي، وتغمده برحمتك؛ فقد كان ممن عملوا على تبيين كتابك للناس، ولم يشتروا به ثمناً قليلاً من المتاع الزائف في الدنيا، ومن الذين ذادوا عن سنة نبيك ﷺ، ونصحوا لدينك، وذبوا عن شريعتك، ونفضوا عنها غبار السنين.

* * * * *

بسم الله الرحمن الرحيم

براءة بمنح شهادة العالمية

من فؤاد الأول ملك مصر بعناية الله تعالى

إلى حضرة الشيخ عبد الرازق عفيفي عطية النوبي المالكي من شنشور بمركز أشمون بمديرية المنوفية

رفع إلينا صاحب العزة وزير الأوقاف ما قرره مجلس الأزهر الأعلى في ١٤ ربيع الثاني ١٣٥١

(١٦ أغسطس ١٩٣٢) من نجاحكم في امتحان شهادة العالمية الذي أجري بالجامع الأزهر في ١٣٥٠

لذلك أصدرنا باسم جلالتنا الملكية هذه البراءة بمنحكم شهادة العالمية مع حقوقها التي تخولها لكم القوانين

والأنظمة المتبعة . نفع الله الناس بعلمكم ووفقكم لما فيه الخير

تحريرًا بسراي عابدين الملكية بالقاهرة في اليوم الثالث والعشرين من شهر المحرم سنة ألف وثلاثمائة واثنين وخمسين

من هجرة خاتم المرسلين .

سجل رقم ٢٧٥٦

صدر بأمر مولاي الملك المعظم

رئيس ديوان جلالة الملك

براءة بمنح شهادة التخصص في فقه المالكية والأصول

من فاروق ملك مصر بعناية الله تعالى

إلى حضرة العلامة الشيخ عبد الرازق عفيفي عطية النوبي المالكي من شنشور

بمركز أشمون بمديرية المنوفية

رفع إلينا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ما أقره المجلس الأعلى للأزهر

في ١٤ رمضان ١٣٥٥ (٢٨ نوفمبر ١٩٣٦) من نجاحكم في الامتحان النهائي لقسم التخصص بالجامع الأزهر الذي أجري

سنة ١٣٥٥ واستحقاقكم لشهادة التخصص في فقه المالكية والأصول

لذلك أمرنا بإصدار براءتنا الملكية هذه من ديواننا بمنحكم هذه الشهادة مع حقوقها التي تخولها إياها

القوانين والأوامر المتبعة نفع الله المسلمين بعلمكم ووفقكم إلى فعل الخير

تحريرا بسراي عابدين الملكية بالقاهرة في اليوم الثالث من شهر ذي القعدة سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين

من هجرة خاتم المرسلين.

مجلس الأوصياء

بأمر مجلس الأوصياء الموقر

رئيس ديوان جلالة الملك بالنيابة

تسجل برقم: ٢٨٦ تم تسليم صاحب الشهادة

عبد الرزاق عفيفي عطية

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي المتقين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، صلى الله وسلم عليه وعلى إخوانه النبيين والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛ فإن الله تعالى وسع كل شيء رحمة وعلماً، سبحانه له الحكمة البالغة والقدرة الشاملة والإرادة النافذة، لم يخلق عباده عبثاً، ولم يتركهم سُدى، بل بعَدْله قامت السماوات والأرض، وبحكمته وتشريعه وإرسال رسله قامت الحجة، وسعد من اتبعهم وسلك طريقهم في الدنيا والآخرة، وخاب وخسر من سلك غير سبيلهم واتبع هواه بغير هدى من الله.

قال الله تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ [القيامة: ٣٦].

وقال: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون**.

فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال: **﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذٰلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾** [صٓ: ٢٧ - ٢٩].

لا يليق بعاقل رشيد عرف كمال حكمة الله وسعة رحمته، وعرف واقع الناس وما هم فيه من هرج ومرج وفساد وضلال؛ أن ينكر حاجة البشر إلى قيادة رشيدة، عمادها وحي الله وشريعته، تعتصم به، وتدعوا الناس إليه، وتهديهم إلى سواء السبيل.

فإن الإنسان قد يقصر عقله في كثير من أحواله وشؤونه عن التمييز بين الحسن من الأفعال وقبيحها ونافعها وضارها، وقد يعجز عن العلم بما يجب عليه علمه؛ لأنه ليس في محيط عقله ولا دائرة فكره، مع ما في علمه به من صلاحية وسعادة؛ كمعرفته بالله واليوم الآخر والملائكة تفصيلاً؛ فكان في ضرورة إلى معين يساعده في معرفة ما قصر عنه إدراكه أو عجز عنه فهمه، ويهديه الطريق في أصول دينه.

وقد يتردد الإنسان في أمر من شؤون حياته وتملكه الحيرة فيه؛ إما لعارض هوى وشهوة، وإما لتزاحم الدواعي واختلافها؛ فكان في أشد الحاجة إلى من ينقذه من الحيرة، ويكشف له حجاب الضلالة بنور الهداية، ويخرجه من الظلمات إلى النور، ويكمله بمعرفة ما عجز عنه

فكره وفهمه، ويوقفه على حقيقة ما تردد فيه أو عجز عنه عقله، ويدفع غائلة الألم والحيرة ومضرة الشكوك والأوهام.

إن تفاوت العقول والمدارك وتباين الأفكار واختلاف الأغراض والمنازع ينشأ عنه تضارب الآراء وتناقض المذاهب، وذٰلك مما يفضي إلى سفك الدماء، ونهب الأموال، والاعتداء على الأعراض، وانتهاك الحرمات، وبالجملة ينتهي بالناس إلى تخريب وتدمير، لا إلى تنظيم وحسن تدبير، ولا يرتفع هٰذا إلا برسول يبعثه الله بفصل الخطاب؛ ليقيم به الحجة، ويوضح به المحجة؛ فاقتضت حكمة الله أن يرسل رسله بالهدى ودين الحق رحمة منه بعباده، وإقامة للعدل بينهم، وتبصيراً لهم بما يجب عليهم من حقوق خالقهم وحقوق أنفسهم وإخوانهم، وإعانةً لهم على أنفسهم، وإعذاراً إليهم؛ فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله.

من أجل ذٰلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح؛ أن سعد بن عبادة قال: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي؛ لضربته بالسيف غير مصفح (أي: بحده لا بصفحته). فبلغ ذٰلك رسول الله ﷺ؛ فقال: «تعجبون من غيرة سعد؛ لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذٰلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذٰلك مدح نفسه، ووعد من مدحه الجنة»»[1].

---

(١) أخرجه: البخاري (١٣ / ٣٩٩، برقم ٧٤١٦)، ومسلم (٢ / ١١٣٦، برقم ١٤٩٩)؛ عن المغيره بن شعبة رضي الله عنه.

بهٰذا يتبين أن إرسال الله الرسل إلى الناس مبشرين ومنذرين هو مقتضى حكمته وموجب فضله وإحسانه ورحمته بعباده، والله عليم حكيم، ولم يخرج على هٰذا (فيما ذكره العلماء) إلا البراهمة؛ فإنهم تطرفوا؛ فأحالوا أن يصطفي الله رسولاً من عباده ويرسل إليهم رسولاً، وزعموا أن إرسالهم عبث؛ إما لعدم حاجة الناس إليهم اعتماداً على العقل في التمييز بين المصالح والمفاسد، واكتفاءً به في إدراك ما يحتاجه الناس في المعاش والمعاد، وإما لاستغناء الله عن عباده؛ لعدم حاجته إلى أعمالهم إن كان خيراً، وعدم تضرره بها إن كانت شرّاً؛ إذ هو سبحانه لا ينتفع بطاعتهم ولا يتضرر بمعصيتهم.

ومن شاهد أحوال الناس وعرف واقعهم المرير الصاخب، وعرف أن الله لم يرسل الرسل لمصلحة تعود إليه أو مضرة يدفعها عن نفسه، تعالى الله عن ذٰلك علوّاً كبيراً؛ بل أرسلهم لمصالح البشر وسعادتهم في الدينا والآخرة؛ أقول: من عرف ذٰلك؛ عرف فساد مذهب البراهمة لمناقضته مقتضى الحكمة والرحمة ومجافاته لواقع الناس.

إن إرسال الله الرسل ليس مستحيلاً في نفسه، ولا عبثاً حتى يجافي حكمة الله؛ بل هو جائز عقلاً، داخل في نطاق قدرة الله الشاملة وإرادته النافذة؛ فإنه سبحانه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا رادّ لما قضى، وهو على كل شيء قدير، يشهد لهٰذا سنة الله في تدبيره لشؤون خلقه، وتصريفه لأحوالهم في عقولهم ومداركهم، وفي أبدانهم وأرزاقهم، وفي وجاهتهم ومراكزهم في الحياة.

فإنا نشاهد أن الله سبحانه وتعالى خلق عباده على طرائق شتى في

أفكارهم، ومذاهب متابينة في مداركهم؛ فمنهم من سما عقله واتسعت مداركه حتى وصل بثاقب فكره وانتهت به تجاربه إلى أن اخترع للناس ما رفع أولو الألباب إليه أبصارهم من أجله؛ إعجاباً به، وشهادة له بالمهارة، وأنكره عليه صغار العقول؛ فعدوه شعوذة وكهانة، أو ضرباً من ضروب السحر، ولا يزالون كذلك حتى يستبين لهم بعد طول العهد ومر الأزمان ما كان قد خفي عليهم؛ فيذعنوا له ويوقنوا بما كانوا به يكذبون.

ومنهم من ضعف عقله، وضاقت مداركه؛ فعميت عليه الحقائق، واشتبه عليه الأمر الواضح؛ فأنكر البديهيات، ورد الآيات البينات، بل منهم من انتهى به انحراف مزاجه وضعف عقله إلى أن ينكر ما تدركه الحواس؛ كالسوفسطائية.

وكما ثبت التفاوت بين الناس في العقول والأفهام؛ ثبت التفاوت بينهم أيضاً في قوة الأبدان وضعفها، وسعة الأرزاق وضيقها، ونيل المناصب العالية، والاستيلاء على زمام الأمور، وقيادة الشعوب، والحرمان من ذلك؛ إما للعجز أو القصور ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، وإما لحِكم أخرى علمها مدبر الكائنات، وربما كشف عن كثير منها الغطاء لمن تدبر القرآن وعرف سيرة الأنبياء وعرف تاريخ الأمم وما جرى عليها من أحداث.

فمن شاهد ما مضت به سنة الله في عباده من التفاوت بينهم في مداركهم وإراداتهم وسائر قواهم وغير ذلك من أحوالهم؛ لم يسعه إلا أن يستسلم للأمر الواقع دون جدل أو مراء، ويستيقن بأن لله ـ الواهب النعم، المفيض للخير ـ أن يختص بعض عباده بسعة الفكر، ورحابة

الصدر، وكمال الصبر، وحسن القيادة، وسلامة الأخلاق؛ ليعدهم بذلك لتحمل أعباء الرسالة، ويكشف لهم عما أخفاه عن غيرهم، ويوحي إليهم بما فيه سعادة الخلق وصلاح الكون؛ رحمة للعالمين، وإعذاراً إلى الكافرين، وإقامة للحجة على الناس أجمعين؛ فإنه سبحانه بيده ملكوت كل شيء، لا يرد قضاؤه، ولا يمنع عطاؤه، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

قال الله تعالى: **﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾** [القصص: ٦٨].

وقال: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لِئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**[النساء: ١٦٥].

وقال سبحانه: **﴿وقالوا لولا نزل هٰذا القرآن على رجلٍ من القريتينِ عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون﴾** [الزخرف: ٣١، ٣٢].

إن الفطر السليمة التي فطر الله عليها الناس لا تستبعد أيضاً ما مضت به سنة الله في عباده، وقضت به حكمته وعدله في خلقه من إرساله سبحانه رسلاً مبشرين ومنذرين؛ بل أذعنت له وأيقنت به استجابة لمقتضى العقول الرشيدة، بل اعترف الكفار بذٰلك مع انحرافهم وسلوكهم غير المنهج القويم، ولم ينكروا الرسالة نفسها، ولم يستبعدوا حاجتهم إلى الهداية من الله عن طريق روح طيبة يختارها الله لوحيه، أو نفس طاهرة يصطفيها الله لتبليغ شرعه، لٰكنهم استبعدوا أن يكون

الرسل من البشر، وظنوا خطأ أنها إنما تكون من الملائكة؛ زعماً منهم أن البشرية تنافي هٰذه الرسالة؛ فإنه مهما صفت روح الإنسان وسمت نفسه واتسعت مداركه؛ فهو في نظرهم أقل شأناً من أن يوحي الله إليه، وأحقر في زعمهم من أن يختاره الله لتحمل أعباء رسالته وإبلاغ شريعته.

ومن نظر في الكتب المنزلة، وتصفح ما رواه علماء الأخبار؛ اتضح له اعترافهم بإمكان الوحي وحاجتهم إليه، حتى الكفار؛ فإنهم إنما استبعدوا أن يختار الله لوحيه رسولاً من البشر.

قال الله تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبين . ألَّا تعبدوا إلَّا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين**﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٧].

وقال تعالى: ﴿**كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر . أءلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر**﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**. . .﴾ الآيات [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى: ﴿**واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها**

المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا وما أنزل الرحمٰن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. . .﴾ الآيات [يٓس : ١٣ ـ ١٥].

وقال الله تعالى : ﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجلٍ مسمىً قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا تريدون أن تصدونا عَمَّا كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم ولٰكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [إبراهيم : ١٠ ـ ١١].

وقال الله تعالى : ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هٰذا إلا بشرٌ مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم﴾ [الأنبياء : ٢ ـ ٤].

. . . إلى غير ذٰلك من الآيات والأخبار التي تدل على أن إنكار الاسم لم يكن لأصل الرسالة ولا لحاجتهم إليها، إنما كان لبعث رسول الله إليهم من جنسهم.

ولو قال قائل : إن أئمة الكفر وزعماء الضلالة كانوا يوقنون في قرارة أنفسهم بإمكان أن يختار الله رسولاً إليهم من البشر، غير أنهم جحدوا ذٰلك بألسنتهم؛ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وتمويهاً على الضغام من الناس، وخداعاً لضعفاء العقول وتلبيساً عليهم؛ خشية أن يسارعوا لمقتضى الفطرة، ويستجيبوا لداعي الدين

ومتابعة المرسلين، لو قال ذٰلك قائل؛ ما كان بعيداً عن الحقيقة، ولا مجافياً للصواب؛ بل بدت منهم البوادر التي تؤيد ذٰلك وتصدقه، وسبق إلى لسانهم ما يرشد البصير إلى ما انطوت عليه نفوسهم من الحسد والاستكبار أن يؤتى الرسل ما أوتوه دونهم، وينالوا من الفضيلة وقيادة الأمم إلى السعادة والإصلاح ما لم ينل هٰؤلاء.

قال الله تعالى: ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل اللهِ اللهُ أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿**وقالوا لولا نزل هٰذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾ [الزخرف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿**فلما جاءتهم آيتنا مبصرةً قالوا هٰذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿**وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كُفَّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق**﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنَّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**﴾ [البقرة: ١٤٦].

وليس بدعاً أن يختار الله نبيّاً من البشر، ويبعث في الناس رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بل ذٰلك مقتضى الحكمة وموجب العقل وما جرت به سنة الله في أنبيائه؛ فإن الله سبحانه قد مضت سنته في خلقه أن يجعلهم أنواعاً مختلفة على طرائق

شتى وطبائع متباينة، لكل نوع غرائزه وميوله، أو خواصه ومميزاته التي تقضي بالأُنس والتآلف بين أفراده، وتساعد على التفاهم والتعاون بين الجماعات؛ ليقوم الوجود، وينتظم الكون؛ فكان اختيار الرسول من الأمة أقرب إلى أخذها عنه، وأدعى إلى فهمها منه وتعاونها معه لمزيد التناسب ومكان الألف بين أفراد النوع الواحد، ولو كان عمار الأرض من الملائكة؛ لاقتضت الحكمة أن يبعث الله إليهم ملكاً رسولاً، وقد أرشد الله إلى ذٰلك في رده على من استنكر أن يرسل الله إلى البشر رسولاً منهم، قال تعالى: ﴿**وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً**﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

ولٰكن شاء الله أن يكون سكان الأرض من البشر؛ فاقتضت حكمته أن يكون رسوله إليهم من جنسهم، بل اقتضت حكمته ما هو أخص من ذٰلك وأقرب إلى الوصول للغاية وتحصيل المقصود من الرسالة؛ فكتب على نفسه أن يرسل كل رسول بلسان قومه، قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم**﴾ [إبراهيم: ٤].

ولو قدر أن الله أجاب الكفار إلى ما اقترحوا من إرسال ملك إليهم؛ لأرسل سبحانه الملك في صورة رجل ليتمكنوا من أخذ التشريع عنه، والاقتداء به فيما يأتي ويذر، وليخوض معهم ميادين الحجاج والجهاد، وبذٰلك يعود الأمر سيرته الأولى، كما لو أرسل سبحانه إليهم رسولاً من البشر، ويقعون في لبس وحيرة، جزاءً وفاقاً، قال تعالى:

﴿**وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون**﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

ومن نظر في آيات القرآن، وعرف تاريخ الأمم؛ تبين له أن سنة الله في عباده أن يرسل إليهم رسلاً من أنفسهم.

قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾ [الفرقان: ٢٠].

هٰذا وأرجو أن أكون قد بينت بهٰذه الكلمة الموجزة بعض الدواعي التي تقتضي إرسال الرسل، وجوانب من حكمة الله في إعدادهم واصطفائهم لتلقي الوحي عنه، وتحمل أعباء البلاغ وقيادتهم الأمم إلى ما فيه الصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

كما أرجو أن أكون قد أوضحت الحكمة في اختيار الرسل إلى البشر من جنسهم وبلسان أممهم، والرد على من يخالف في أصل إرسال الرسل، أو يمنع أن يكون رسل الله إلى البشر من جنسهم، ويخيل إليه اختصاص ذٰلك بالملائكة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله على نبينا محمد وإخوانه النبين والمرسلين ومن اهتدى بهديهم وسلك منهجهم القويم.

كتبه: عبد الرزاق عفيفي

منهج الرسل في الدعوة إلى الله

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله وآلهم أجمعين، وبعد:

فلم يكن الله سبحانه ليدع عباده سدىً ويتركهم هملاً دون أن يأمرهم وينهاهم ويجزيهم على ما كسبت أيديهم.

قال تعالى: ﴿**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إلٰه إلا هو رب العرش الكريم**﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفةً من مني يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذٰلك بقادر على أن يحيى الموتى**﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

فأرسل سبحانه الرسل وشرع الشرائع؛ رعايةً لمصالح عباده في معاشهم ومعادهم فضلاً منه ورحمة، قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وأبان الدليل وأوضح السبيل وبشر

وأنذر؛ إقامة للحجة عليهم، وإعذاراً إلى من حقت عليه كلمة العذاب منهم فاتبع هواه بغير هدى من الله؛ حكمة منه وعدلاً.

قال تعالى: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: **﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى . ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾**[طه: ١٣٣، ١٣٤].

وفي «الصحيح»: «أن سعد بن عبادة قال: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ؛ فقال: «تعجبون من غَيْرة سعد؟ والله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة»».

ومن تمام رحمة الله بعباده، ونعمته عليهم، وكمال حكمته في إقامة الحجة، والإعذار إلى من سبق عليه القول منهم؛ أن جعل شريعة كل رسول من رسله شاملة كل ما تحتاجه أمته، جامعة لما يصلح شأنها، وينهض بها في إقامة دولتها وبناء مجدها وتقويم أودها وحفظ كيانها، ويجعلها مثلاً أعلى في جميع شؤونها، سعيدة في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «ما بعث نبي؛ إلا كان حقّاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم»، بل تضمنت فوق ذلك ما يكمل

الضروريات والحاجيات والتحسينات على خير حال وأقوم طريق.

قال تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولٰكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال: ﴿**اليوم أكملت لك دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ [المائدة: ٣].

وقال: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ [النحل: ٨٩].

وعن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هٰذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»(١).

وقال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً».

وقال عمر رضي الله عنه: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذٰلك من حفظه، ونسيه من نسيه».

وقال مالك بن أنس: «لا يصلح آخر هٰذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ثم ذكر قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ [المائدة: ٣]. ثم قال: فما لم يكن

---

(١) متفق عليه من حديث جابر، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنهم.

يومئذ ديناً؛ فلا يكون اليوم ديناً».

ولا عجب في أن يشرع الله شريعة عامة دائمة لعالم يطول عهده ويتجدد خلقه وتتطور أحواله، ويكون التدرج في شرعها أيام رسولها، ثم تستقر بعد وفاته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ فإن الله سبحانه أحاط بكل شيء علماً، ووسع كل شيء رحمة وإحساناً وحكمة وعدلاً، وخلق كل شيء فقدره تقديراً؛ فهو عليم بكل شؤونه الظاهرة والباطنة، وما يصلح حاله في عاجله وآجله، ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ [الملك: ١٤]، ﴿**وما كان ربك نسيّاً**﴾ [مريم: ٦٤].

إنما يستنكر ذلك من البشر ونحوهم من المخلوقات؛ لأن أفكارهم محدودة ومداركهم قاصرة، مع استيلاء الهوى عليهم وتمكن العصبية منهم... إلى غير ذلك مما يوجب كثرة اللغط في آرائهم، والاضطراب والتناقض في مذاهبهم في أصول التشريع وفروعه عن قصد وغير قصد، وخاصة تفاصيل التوحيد والمعاد والعبادات والمعاملات، قال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ [النساء: ٨٢].

الأمم الماضية لما كانت تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وكان الوحي مستمراً، جرت فيهم سنة التطور في التشريع والتدرج في الأحكام، وكان الكثير من التفاصيل وفروع الشريعة مؤقتاً، فنسخت الشريعة اللاحقة من أحكام الشريعة السابقة ما اقتضت المصلحة نسخه؛ تنشئة للأمة، وتربيةً لها، وسدّاً لحاجتها، أو عقوبة لها على ظلمها وتمردها على شرائع ربها.

قال تعالى في رسالة عيسى عليه السلام: ﴿**ومصدقاً لما بين يديّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم**﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال تعالى في محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأميِّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون**﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وقال: ﴿**فبظلمٍ من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً. وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً**﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

أما هٰذه الأمة المحمدية؛ فشريعتها خاتمة الشرائع، ورسولها خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا نبي بعده؛ فاقتضت حكمة الله أن تكون شريعته فيهم عامة دائمة إلى يوم القيامة، كفيلة بجميع مصالحهم الدينية والدنيوية، منظمة لنواحي حياتهم المختلفة، مُغْنية لهم عما سواها في جميع أمورهم وشؤونهم؛ ولو طال بهم الأمد، واختلفت أحوالهم على مر الأيام والعصور حضارةً وثقافةً، وتباينت أفكارهم ذكاءً وغباوةً، وحالتهم قوةً وضعفاً وغنىً وفقراً.

وجاءت تكاليف هٰذه الشريعة جملتها وتفصيلها قواعدها وجزئياتها

بتحقيق مقاصد التشريع الضرورية التي لا بد منها في قيام مصالح العباد الدينية والدنيوية، ولا تستقيم أحوالهم إلا بها، وذٰلك يرجع إلى ما يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وأنسابهم وعقولهم وأموالهم، وبتحقيق مقاصده الحاجية التي تيسر عليهم طريق العمل للوصول للغاية المنشودة، وتجعلهم في سعة وسهولة، وتدفع عنهم المشقة والحرج، وبتحقيق ما يجمل حالهم، ولو كان من عند غير الله؛ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وصحيفة الوجود وواقع الحياة في تاريخ الأمم أصدق شهيد بذٰلك؛ فمن ابتغى الهدى في غير شريعة الله من النظم والقوانين الوضعية أضله الله، ومن حكم غيرها في عقيدته أو عبادته أو معاملاته؛ فهو مبتدع فيه جاهلية، سيىء الظن بربه، معجب بفكر نفسه أو أفكار من اتخذهم من زعمائه أرباباً في التشريع، يشرعون له ما يضاهي به شريعة الله، بل يؤثر قوانينهم مع قصورهم وتقصيرهم على شريعة أحكم الحاكمين، وكفى بذٰلك زيغاً وضلالاً وكفراً وطغياناً.

قال تعالى: ﴿وأن هٰذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذٰلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذّكرون﴾ [الأعراف: ٣].

وقال: ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ [المائدة: ٥٠].

وقـال: ﴿**وتمت كلمـة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون**﴾ [الأنعام: ١١٥، ١١٦].

وقال: ﴿**واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولٰكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفُسوق والعصيان أولئك هم الراشدون**﴾ [الحجرات: ٧].

. . . إلى غير ذٰلك من النصوص التي حثت على العمل بكتاب الله وهدي رسوله عليه الصلاة والسلام، وحذرت من الحيدة عن ذٰلك والإعراض عنه تباعاً للآراء، ونحاتة الأفكار دون بينة من الله أو حجة عن المعصوم ﷺ.

وإليك كلمات في أركان الشريعة والسياسة والبلاغة، وأمثلة من نصـوص الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين، يتبين لك منها سعة الشـريعـة وغناها بالنصوص والقواعد العامة والجزئيات الخاصة؛ التي تشرح حق الله على عبده، وحق العبد على ربه، وحق الراعي والرعية، وتحـدد موقف الـدولـة من الـدولة في السلم والحرب، والعلاقة بين أفراد الشعب وجمـاعـاتـه، بل بينت حقـوق الحيـوانـات والعجمـاوات على راعيها، وحَدَّتْ من تسخيره لها وتسلطه عليها على وجه من العدالة يكفل لهـا البقـاء، وحـل جميع ما يَجِدُّ من المشاكل العامة والخاصة على أقوم طريق وأهدى سبيل.

للشريعة أصول إليها ترجع، ودعائم عليها تقوم؛ فشريعة الصلاة والصيام والزكاة ونحوها من العبادات لا يستقيم أداؤها ولا التنسك بها إلا

إذا عرف العابد أن من يتقرب إليه غني كريم، قوي متين، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. . . إلى غير ذٰلك من صفات الجلال والإنعام وقوة البأس وشدة الانتقام، فإنه إذا عرفه العباد بذٰلك؛ أشربت قلوبهم حبه، واستشعرت كمال الذل له والخوف منه، فأسلموا وجوههم إليه، وعبدوه عبادة من يعلم أنه يسمعه ويراه ويراقبه في كل شؤونه وأحواله؛ رجاء رحمته، وخشية عذابه.

وشريعة المعاملات لا تعدو ذٰلك النهج ـ نهج العبادات ـ؛ فإن استقامة الناس في أخلاقهم، وعدلهم في رضاهم وغضبهم، وإنصافهم لأوليائهم وأعدائهم، ونصحهم في بيعهم وشرائهم وجميع معاملاتهم يتوقف على شعور القلب بهيمنة قوة غيبية فوق قوى العالم، قوة رب قادر يخفض ويرفع ويعطي ويمنع على سنن قويم من الحكمة والعدالة، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا رادَّ لما قضى؛ بذٰلك الشعور يستقيم حال الإنسان، وينتظم أمره في سره وعلنه، فيرعى الحقوق لعذابه ونقمته، وبذٰلك الشعور وحده يجتمع شمل العالم ويعم الأمن والسلام جميع مرافق الحياة.

أضف إلى ذٰلك أن ثبوت الشريعة في ذاتها عند المكلفين والإيمان بها يتوقف على معرفة مصدرها والثقة بطريق بلاغها؛ فيجب إذن على العباد أن يعلموا أولاً أن لهم ربّاً خلَّاقاً عليماً حكيماً، بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجعون. . . إلى غير ذٰلك مما تفرد به من صفات الربوبية، ويؤدوها على وجهها؛ استمداداً لفضل الله ورحمته، ودفعاً للتي استوجبت إخلاص العبادة منه؛ ليسلموا وجوههم إليه كوناً وشرعاً،

ويعبدوه مخلصين له الدين رغبة ورهبة، وأن يعلموا ثانياً أنه تعالى يرسل رسله ليبلغوا عنه شريعته رحمة منه وفضلاً، ويؤيدهم بالمعجزات، ويعصمهم في البلاغ حكمة منه وعدلاً؛ ليميز الكاذب من الصادق والمبطل من المحق؛ فيثق العباد بشريعة ربهم، ويأمنوا عليها من الدخل والافتراء، وتقوم عليهم بها الحجة، قال تعالى: ﴿**ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

لهٰذا بدأت الرسل دعوتها بالتوحيد وإثبات الرسالة والجزاء يوم المعاد؛ فجرت على موجب العقل ومقتضى الفطرة.

وكان لزاماً على الدعاة أن يبدؤا بما بدأ به الرسل، ويتبعوا ذٰلك القول في الفروع وتفاصيلها وسائر ما يكمل الأصول ويحمي حماها حسب الأهمية، وما يشعر به الدعاة من حاجة المدعوين شعوباً وأفراداً.

سلكت الرسل في إثبات وجود الله وتوحيده وصدقهم في دعوى الرسالة وخبرهم عن اليوم الآخر مسلك الإقناع بالحجة والبرهان وضرب الأمثال، وجمعت في ذٰلك بين مناجاة العقل والتأثير على العاطفة والتذكير بما جبلت عليه النفوس وفطر عليه الخلق من الإقرار بالحق والميل إلى العدل والإنصاف، مع لين الجانب، والرفق في الخطاب، والصفح الجميل في غير ذلة نفس ولا مواربة أو مداهنة؛ فلا عنت في القول ولا تعسف، ولا فرض لحكم على الأمة دون بينة من الله وسلطان.

ففي إثبات وجود الله اكتفوا بالاستدلال عليه بالإشارة، مع دقة المأخذ وسهولة العبارة؛ لقلة من أنكر وجوده تعالى ممن مسخت فطرهم

ووضح للعقلاء جهلهم ومجافاتهم الحق وتنكبهم طريق الصواب، قال تعالى: ﴿**أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون**﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]؛ فأنكر تعالى أن يكونوا خُلِقوا بلا خالق ضرورة أن الأثر يحتاج في حدوثه إلى مؤثر، كما شهد بذلك العقل والفطرة والحس، وأنكر أن يكونوا خالقين لأنفسهم؛ لما يلزمه من التناقض، وأنكر أن يكونوا خالقين للسماوات والأرض؛ لشهادة تاريخ وجود الأمم والكونيات الأخرى بأن خلق السماوات والأرض قد كان قبل خلق ما بينهما من الإنس والجن ونحوهم؛ فكيف يخلق المتأخر في الوجود شيئاً قد سبقه وتقدم عليه؟!

وقد أخذ جماعة من العلماء هٰذا الدليل الخبري العقلي، وأدخلوا عليه شيئاً من التكلف والصناعة الكلامية؛ فقالوا: إن نسبة الممكن إلى طرفيه الوجود والعدم على السواء، فلو وجد بدون سبب خارج عن ذاته وحقيقته؛ لزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح، ولو أوجد نفسه؛ لزم مع ذٰلك أن يكون متقدماً على نفسه باعتباره خالقاً لها، متأخراً عنها باعتباره مخلوقاً لها، وتقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها باطل بالضرورة؛ لما فيه من التناقض الواضح؛ فثبت أن العالم لا بد له من موجد غير ذاته وحقيقته، ولا بد أيضاً أن يكون واجب الوجود لذاته، مختلفاً عن العالم في خواصه وصفاته، ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ [الشورى: ١١]، ذٰلك ليصح أن يستند إليه العالم في وجوده بَدْءً ودواماً؛ إذ لو كان مستحيلاً لما صح أن يكون منه خلق أو تقدير؛ لأن المستحيل عدمٌ محض، وفاقد الشيء لا يعطيه، ولو كان ممكناً؛ لافتقر

إلى من يرجح وجوده على عدمه كما سبق بيانه، فإن استمرت الحاجة فاستند كل في حدوثه إلى نظير له من الممكنات؛ لزم إما الدور القبلي وإما التسلسل في المؤثرات، وكلاهما باطل باتفاق العقلاء.

وإذا انتفى عنه الإمكان والاستحالة؛ ثبت له وجوب الوجود لذاته، ضرورة أن أقسام الحكم العقلي ثلاثة: الوجوب، والإمكان، والاستحالة، وقد انتفى اثنان؛ فتعين الثالث، وهو وجوب الوجود.

قال تعالى: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**﴾ [الحديد: ٣].

وفي الحديث: «اللهم! أنت الأول؛ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر؛ فليس بعدك شيء».

ومن نظر فيما ترشد إليه الآيات نظراً ثاقباً، وفكَّر فيما توحي به سنن الله في المخلوقات ـ من عجائب خلقها، وحسن تنسيقها، وشد أسرها ـ تفكيراً عميقاً، وبحث في أحكامها وبديع صنعها بحثاً بريئاً من الهوى والحمية الجاهلية، وأنصف مناظره من نفسه ـ فلم يمنعه من فهم ما عرض عليه من الحق والإذعان له كبر يرديه، ولا عناد يطغيه ـ؛ اتضح له الهدى، واضطره ذٰلك أن يؤمن من أعماق قلبه بأن للعالم ربّاً خلّاقاً فاعلاً مختاراً حكيماً في تدبيره وتقديره، أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير.

ومع قيام الدليل ووضوح السبيل؛ تعامى بعض الناس عن الحق، ومن أولئك: فرعون موسى؛ فإنه أنكر بلسانه ما استيقنت به نفسه

وشهدت به الفطرة وقام عليه الدليل؛ من وجود واجب الوجود سبحانه، فأقام موسى عليه الحجة بدلالة الأثر على المؤثر والصنعة على الصانع، فوجود الخلق وعظم شأنه دليل على وجود الخالق وعِظَم قدرته وقدره، وسعة علمه وكمال حكمته؛ فألقمه الحجر.

وذٰلك بيِّن فيما حكاه الله عنهما من الحوار والسؤال والجواب، قال تعالى: ﴿**قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين**﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٩]؛ فانظر كيف وقف موسى موقف من يصدع بالحق ويقيم عليه الحجة والبرهان، وكيف وقف فرعون من موسى موقف السفهاء لا يملك إلا الشتم والسباب والسخرية والاستهزاء والتهديد بأليم العذاب!

وقال تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هٰؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً**﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿**فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هٰذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**﴾ [النمل: ١٢، ١٣].

فبين تعالى أنه آتى موسى الآيات التي تنير البصائر وتجلو

الشكوك، وأن موسى ثبت في ميدان الدعوة ثبات مؤمن بما جاء به موقن بنصر ربه؛ فلم يرهبه جبروت فرعون، ولم يأخذ من نفسه مأخذاً مع وحدته وضعف قومه، أما فرعون؛ فقد بهرته الآيات، وأخذت عليه صولة الحق الطريق، فلم يجد لديه سلاحاً يحفظ به ملكه في زعمه ويدافع به عن باطله إلا الخداع والتمويه على قومه، وإنذار موسى ومن آمن به أن يذيقهم أليم عذابه، وأنَّى له ذٰلك والله من ورائهم محيط، وقد كتب على نفسه أن يجعل العاقبة للمتقين.

﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً . وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ [الإسراء: ١٠٣، ١٠٤].

ومن ذٰلك أيضاً قوله تعالى: **﴿قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذي أعطى كلى شيء خلقه ثم هدى﴾** [طه: ٤٩ ـ ٥٠].

إلا أنه أجمل وأوجز في الاستدلال بهٰذه الآيات، وفصَّل في تلك.

وقد ورث ذٰلك الزيغ والإلحاد أناس ظهروا في عصور متعاقبة بأسماء مختلفة، واشتهروا بألقاب متنوعة؛ فتارة يسمون بالدهريين، وأخرى برجال الحقيقة ووحدة الوجود، وأحياناً بالشيوعيين، وآونة بالبهائيين. . . إلى غير ذٰلك من العبارات التي اختلفت حروفها ومبانيها وائتلفت مقاصدها ومعانيها؛ فكلها ترمي إلى غرض واحد، وتدور حول مِحْورٍ واحد: هو أنه ليس للعالم رب يخلق ويدبر ولا له إلٰه يقصد ويعبد، وقد تبين بما تقدم وأمثاله فساد مذهبهم وخروجه عن مقتضى العقل والفطرة وما أيد ذٰلك وصدَّقه بعد أدلة السمع.

فإن زعم بعد ذلك زاعم أن وجود العالم وليد الصدفة والاتفاق، أو أنه نشأت أطواره عن تفاعل عناصر المادة فتفرقت إلى وحدات بعد اجتماع أو اجتمعت بعد تفرق واختلاف، وصار لتلك الوحدات أو المركبات من الخواص ما لم يكن لها قبل ذٰلك من التفاعل، وبذٰلك تجددت الظواهر وحدث ما نشاهد من تغير وآثار مع جريانها على سنة لا تتبدل وناموس لا يختلف ولا يتغير.

قيل له: من الذي أودع تلك المادة طبيعتها وأكسبها خواصها؟ فإنها إن كانت لها من ذاتها ومقتضى حقيقتها؛ لم تقبل التغير والزوال؛ لأن ما بالذات لا يتغير ولا يزول، وقد رأيناها تتغير وتزول؛ فلا بد لها إذن من واهب يهبها وفاعل مختار عليم حكيم يوجدها ويدبرها ويضعُها مواضعها، وليس ذٰلك المادة أو خواصها وطبيعتها؛ فإنها مع حدوثها وحاجتها ليس لها من سعة العلم وكمال الحكمة وشمول المشيئة وعظم القدرة ما ينتظم معه الكون مع ما نشاهده من إحكام تبهر العقول دقته وجماله، ومن إبداع يأخذ بمجامع القلوب ما فيه من شدة الأسر وقوة الرباط بين وحداته، وكمال التناسب بين أجزائه، وقيام كل من الآخر مقام الخادم من سيده والراعي من رعيته.

ألا إن الطبيعة صماء لا تسمع، بكماء لا تنطق، عمياء لا تبصر، جاهلة لا تعلم، مُسَخرة لمن أودعها المادة، خاضعة لتصريفه وتقديره، سائرة على ما رسم لها من سنن لا تعدوها ونواميس لا تخرج عنها؛ فأنَّى يكون لها خلق وإبداع، أو إليها تنظيم وتدبير، أو منها وحي وتشريع! إنما ذٰلك إلى الله الذي شهد العقل والفطرة بوجوب وجوده وكمال علمه

وحكمتـه وغنـاه وقـدرته . . . إلى غير ذٰلك من صفات جلاله، تعالى الله عما يقول الملحدون علوّاً كبيراً .

وقال تعالى : ﴿**تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الـذي خلق المـوت والحيـاة ليبلوكم أيكم أحسن عمـلاً وهـو العزيز الغفـور . الـذي خلق سبـع سمـاوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليـك البصـر خاسئـاً وهـو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير**﴾ [الملك : ١ - ٥] .

ولا يعيب الحق بعد ذٰلك أن يقلَّ من سلك طريقه، وأن يزيغ عنه من انتكست بصيرتـه وفسدت فطرته، فاتخذ إلٰه هواه وأضله الله على علم، وختم على سمعـه وقلبـه، وجعل على بصره غِشاوة، ولا يضير الدعاةَ إليه أن عدل عن الصراط المستقيم من انحرف مزاجه أو غلبته شهـوته فخشي أن تَحُدَّ الشريعة من نزعاته الخبيثة وتحول دون نزواته الدنيئة، أو أطغاه كبره وسلطانه وخاف أن تذهب الشريعة بزعامته الكاذبة وسلطـانـه الجـائـر، فوقف في سبيلهـا وصـد عنهـا ولجَّ في خصامها بغياً وعدواناً ؛ فإن الله ناصر دينه ومؤيد رسله وأولياؤه .

﴿**ولينصرن الله من ينصره إنَّ الله لقويٌ عزيز**﴾ [الحج : ٤٠] .

﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ [محمد : ٧] .

﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

يحكى عن أبي حنيفـة رحمه الله: «أن جماعة من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير الربوبية، فقال لهم: أخبروني قبل أن نتكلم في هٰذه المسألة عن سفينة في دجلة، تذهب فتمتلىء من الطعام والمتاع وغيرهما بنفسها، وتعود بنفسها فترسي بنفسها، وتفرغ وترجع، كل ذٰلك من غير أن يديرها أحد. فقالوا: هٰذا محال لا يكون أبداً. فقال لهم: إذا كان هٰذا محالاً في سفينة؛ فكيف في هٰذا العالم كله علوه وسفله؟؟!»[1].

وقد قال مثل هٰذه المقالة جماعة معه من العلماء، وقولهم ليس حجة لصدوره عنهم، بل لصحته في ذاته وشهادة الواقع له.

شهدت الفطرة بأن الله وحده خالق كل شيء ومليكه، وإليه يرجع الأمر كله من التصريف والتدبير؛ فهو الذي يُحيي ويميت، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو الذي يرسل الرسل، ويشرعُ الشرائع ليحق الحق بكلمـاته ويقيم العدل بين عباده شرعاً وقدراً... إلى غير ذٰلك مما لا يحصيه العدُّ، ولا تحيط به العبارة.

وقام على ذٰلك أيضاً دليل السمع، وأقَرَّ به كلُّ مكلَّف حتى المشركون.

قال تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماءً بقدر فأنشرنا به بلدةً**

---

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١ / ٣٥ ـ ٣٦).

ميتاً كذٰلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ [الزخرف: ٩ ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون . أمَّنْ خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قومٌ يعدلون . . .**﴾ إلى أن قال: ﴿**أمَّنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإلٰه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

فأنكر سبحانه أن يكون معه إله فعل شيئاً من ذٰلك، وقررهم بتفرده بكل شيء من الخلق والتدبير والتصريف والتقدير؛ ليجعل من ذٰلك ونحوه دليلاً على توحيد العبادة الذي هو المقصود الأول من بعثة الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع ـ كما سيجيء ـ.

ونظائر ما ذكر من الآيات كثير، ولم يعرف عن طائفة بعينها القول بوجود خالقين متكافئين في الصفات والأفعال، ومن نقل عنهم من طوائف المشركين نسبة شيء من الآثار والحوادث إلى غير الله؛ كقوم هود، حيث قالوا فيما حكى الله عنهم: ﴿**إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوءٍ**﴾ [هود: ٥٤]؛ فإنما نسبوه إلى آلهتهم لزعمهم أنها وثيقة الصلة بالله، وأنها تملك الشفاعة عنده سبحانه لمن عبدها وتقرب إليها بالقرابين؛ فهي في زعمهم تملك لهم جلب النفع ودفع الضر، لٰكن عن طريق الشفاعة لهم عند الله.

ومن أجل هٰذه الشائبة من الشرك نبَّه الله سبحانه على بطلانه،

وأنكر على من زعمه؛ فقال تعالى: ﴿**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰه إذاً لذهب كل إلٰه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون**﴾ [المؤمنون: ٩١ - ٩٢].

فبين سبحانه أنه لو كان معه إلٰه يشركه في استحقاق العبادة؛ لكان له خلق وتقدير وملك وقهر وتدبير؛ إذ لا يستحق العبادة إلا من كان كذٰلك ليرجى خيره ونفعه؛ فيطاع أمره، ويقصد قصده، ويخشى بأسه؛ فلا يعتدى على حدوده، ولا ينتهك حماه، ولو كان له خلق وتقدير وملك وتدبير؛ لعلا على شريكه وقهره إن قوي على ذٰلك ليكون له الأمر وحده، ولذهب كلٌّ بما خلق وتفرد بتدبير ما ملك إن لم يكن لديه من القوة ما يفرض بها سلطانه على الجميع؛ فإن من صفات الرب كمال العلو والكبرياء والقهر والجبروت.

وفي معنى هٰذه الآية قوله تعالى: ﴿**قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً . سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً**﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣]، على تقدير أن المراد: لاتخذوا سبيلاً إلى مغالبته وقهره، أو الخروج عليه والتفرد عنه بما خلقوا وملكوا.

أما إن كان المعنى المراد: لاتخذوا سبيلاً إلى عبادته والقيام بواجب حقه رجاء رحمته وخوف عقابه؛ فالآية في توحيد الإلٰهية؛ كقوله تعالى: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إنَّ عذاب ربك كان محذوراً**﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقد استخلص بعض العلماء من ذٰلك دليلاً سموه دليل التمانع، وجعلوا جلّ همهم إثبات توحيد الربوبية به؛ قالوا: لو جاز أن يكون للعالم ربان يخلقان ويدبران أمره؛ لأمكن أن يختلفا، بأن يريد أحدهما وجود شيء ويريد الآخر عدمه، أو يريد أحدهما حركة شيء ويريد الآخر سكونه، وعند ذٰلك إما أن ينفذ مرادهما، وذٰلك محال لما يلزمه الجمع بين النقيضين، وإما أن لا ينفذ مراد كل منهما، وذٰلك محال لما يلزمه من رفع النقيضين وعجز كل منهما، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر؛ فيكون الذي نفذ مراده هو الرب دون الآخر لعجزه، والعاجز لا يصلح أن يكون ربّاً.

ولو أن هٰؤلاء عُنُوا بتوحيد الإلٰهية، وصرفوا همتهم إلى بيان تفاصيله، وأجملوا القول في توحيد الربوبية والاستدلال عليه اكتفاءً بشهادة الفطرة وإقرار العبادة به وعلمه بالضرورة، وجعلوا البحث فيه وسيلة إلى توحيد العبادة ودليلاً عليه؛ لكانوا بذٰلك قد سلكوا طريقة القرآن ومنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقصارى القول أن انتظام العالم علوه وسفله، وإحكام صنعه، وحسن تنسيقه، وشدة الأسر وقوة التماسك بين أجزائه ووحداته؛ دليل واضح على تفرد الله سبحانه بالربوبية ووحدانيته في أفعاله، وبرهان قاطع على إثبات ما أثبته لنفسه من كمال الأسماء والصفات، أو أثبتته له الرسل عليهم الصلاة والسلام من ذٰلك إثباتاً صريحاً مفصلاً، لم يدع مجالاً للشك أو التأويل ولا سبيلاً إلى الريب أو التعطيل؛ فزالت به الشبهة، وحصل به اليقين.

وعلى ذٰلك اجتمعت شهادة الفطرة والعقل الصريح والنقل الصحيح وصدَّق كل منهما الآخر.

وقد ذكر ابن القيم في «مدارج السالكين» هٰذين الطريقين: طريق الوحي والخبر، وطريق الحس والعقل، وإليك نبذة من ذٰلك:

فمن الأول قوله: «ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة؛ علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها من حقائقها؛ فإنها وردت على وجه لا يحتمل معه التأويل بوجه.

فانظر إلى قوله تعالى: **﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾** [الأنعام: ١٥٨]؛ هل يحتمل هٰذا التقسيم والتنويع تأويل إتيان الله جلَّ جلاله بإتيان ملائكته أو آياته؟ وهل يبقى مع هٰذا السياق شبهة أصلاً أنه إتيانه بنفسه؟

وكذٰلك قوله: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده. . .﴾** إلى أن قال: **﴿وكلَّم الله موسى تكليماً﴾** [النساء: ١٦٣، ١٦٤]؛ ففرق بين الإيحاء العام والتكليم الخاص وجعلهما نوعين، ثم أكد فعل التكليم بالمصدر الرافع لتوهم ما يقوله المحرفون.

وكذٰلك قوله: **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾** [الشورى: ٥١]؛ فنوع تكليمه إلى تكليم بواسطة وتكليم بغير واسطة، وكذٰلك قوله لموسى عليه السلام: **﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾** [الأعراف: ١٤٤]؛ ففرق بين الرسالة والكلام، وإنما تكون الرسالة بكلامه.

وكذٰلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو، ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب»[1]، والاحتراز ينافي إرادة التأويل، ولا يرتاب في هٰذا من له عقل ودين».

ثم قال: «**الطريق الثاني لإثبات الصفات**: هو دلالة الصنعة عليها؛ فإن المخلوق يدل على وجود خالقه؛ على حياته وقدرته وعلى علمه ومشيئته، فإن الفعل الاختياري يستلزم ذٰلك استلزاماً ضرورياً وما فيه من الإتقان والإحكام، ووقوعه على أكمل الوجوه يدل على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الإحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدل على رحمة خالقه وإحسانه وجوده، وما فيه من آثار الكمال يدل على أن خالقه أكمل منه؛ فمعطي الكمال أحق بالكمال، وخالق الأسماع والأبصار والنطق أحق بأن يكون سميعاً بصيراً متكلماً، وخالق الحياة والعلوم والقدر والإرادات أحق بأن يكون هو كذٰلك في نفسه، فما في المخلوقات من أنواع التخصيصات هو من أدل شيء على إرادة الرب سبحانه ومشيئته وحكمته التي اقتضت التخصيص. . .».

إلى أن قال: «والإحسان إلى المطيعين والقرب إليهم بالإكرام وإعلاء درجاتهم يدل على محبته ورضاه، وعقوبته للعصاة والظلمة وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدل على صفة الغضب

---

(١) أخرجه: البخاري (٢ / ٣٣، برقم ٥٥٤)، ومسلم (١ / ٤٣٩، برقم ٦٣٣)؛ عن جرير بن عبد الله البجلي.

والسخط، والإبعـاد والطرد والإقصاء يدل على المقت والبُغْض؛ فهٰذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل.

ولهٰذا دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الاستدلال بذٰلك على صفاته؛ فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صفته المشهـودة، والقرآن مملوء بذٰلك؛ فيظهر شاهد اسم الخالق من نفس المخلوق، وشاهد اسم الرازق من وجود الرزق والمرزوق، وشاهد اسم الرحيم من شهود الرحمة المبثوثة في العالم...».

إلى أن قال: «وهٰكذا كل اسم من أسمائه الحسنى له شاهد في خلقه وأمره، يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله؛ فالخلق والأمر من أعظم شواهـد أسمائه وصفاته، وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه على غيره وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره من مشاهدة صنعته؛ فكيف لا تُعرف صفات من هٰذا العالم العلوي والسفلي وهٰذه المخلوقات من بعض صنيعه؟!

وإذا اعتبـرت المخلوقـات والمأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة على النعوت والصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمى بمكابرة، ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة؛ كما قال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢١].

فالـموجودات بأسـرهـا شواهـد صفـات الرب جلَّ جلاله ونعوته وأسمائه؛ فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها، وتنادي عليها وتخبر بها بلسان النطق والحال، كما قيل:

تأمـل سطور الكـائنـات فإنهـا ... من الملك الأعلى إليك رسـائل

وقـد خط فيهـا لو تأملت خطهـا ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطــل
تشير بإثبــات الصفــات لربهــا فصـامتهـا يهـدي ومن هو قائـل

فلست ترى شيئاً أدلَّ على شيء من دَلَالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه.

وقـد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها؛ فهي تدل عقلاً وحسّاً وفطرة ونظراً واعتباراً، وفي هٰذا المعنى قال الشاعر:

تأمــل في نبـات الأرض وانـظر إلــى آثــار ما صنــع الـمـليك
عيون من لجـين شاخــصــات بأحــداق هي الــذهب السبيك
على قضب الـزبـرجد شاهدات بأن الــله ليس له شريك

وإذا ثبت بدلالة الصنعة على الصانع وبأدلة السمع والفطرة وجود الله ووجوب وجوده وتفرده بكمال الصفات والأفعال؛ وجب على العباد أن يخلصوا له العبادة، وأن يسلموا وجوههم إليه في السراء والضراء، وأن يدعوه وحده رغبة ورهبة، خفية وجهرة؛ فهٰذا هو مقتضى الفطرة وموجب العقل السليم، وبه جاء النقل الصحيح.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ فجعل سبحانه تفرده بالربوبية خلقاً للحاضرين والسابقين، ووضعه الأرض للأنام، وتذليله إياها ليمشوا في مناكبها وينعموا برزقه، ورفعه السماء بغير عمد يرونها، وإنزاله الأمطار من السماء ليُحيي بها الأرض بعد موتها، ويُخرج بها من الثمرات رزقاً

لعباده؛ باباً إلى توحيد الإلٰهية، وآية بينة على استحقاقه وحده العبادة، وهٰذا هو الطريق الفطري في الحجاج (أعني الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الإلٰهية)؛ فإن قلب الإنسان يتعلق أولاً بمصدر خلقه ومنشأ نفعه وضره، ثم ينتقل بعد ذٰلك إلى الوسائل التي تقربه إليه وترضيه عنه وتوثق صلته به.

فتوحيد الربوبية باب إلى توحيد الإلٰهية، ومن أجل ذٰلك أجنح الله به على المشركين وقررهم به، وأرشد إليه رسله وأمرهم أن يدعوا به أممهم.

قال تعالى: ﴿**قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذَّكرون . قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنَّى تُسحرون**﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٩]؛ فاستدل بتفرده بالربوبية وكمال التصرف وحمايته ما يريد أن يحميه على استحقاقه وحده العبادة ووجوب تفرده بالإلٰهية.

وهٰذا النوع من التوحيد هو المقصود الأهم من بعثه الرسل وإنزال الكتب، وهو الذي بدأت به الرسل دعوتها ووقعت فيه الخصومة بين الرسل وأممهم، وهو الذي شرع من أجله الجهاد وقامت الحرب على ساقها بين الموحدين والمشركين.

وقال تعالى: ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ [النحل: ١]؛ فأخبر أن البعث آتٍ لا محالة، ونزه نفسه عما

زعمه المشركون من الشركاء، ثم استدل على ذٰلك بآياته الكونية؛ فقال:

﴿**خلق الإنسان من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين**...﴾ الآيات إلى قوله: ﴿**أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون . إلٰهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون**﴾[النحل: ٤ ـ ٢٢].

فأخبر سبحانه عن البعث والتوحيد، ثم أقام على ذٰلك الحجة بآياته الكونية التي لا يشاركه فيها أحد باعترافهم، ثم ختم البحث بنتيجته الاستدلال، وهو التوحيد والقدرة على البعث، وذٰلك قوله: ﴿**إلٰهكم إله واحد**...﴾ الآية [النحل: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿**قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّنْ يملك السمع والأبصار**...﴾ إلى قوله: ﴿**فما لكم كيف تحكمون**﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٥]؛ فقررهم سبحانه بما لا يسعهم إنكاره، ولا مخلص لهم من الاعتراف به من تفرده بالرزق والملك والتدبير والإحياء والإماتة والبدء والإعادة، والإرشاد والهداية؛ ليقيم به عليهم الحجة في وجوب طاعته دون سواه، وينكر عليهم حكمهم الخاطىء وشركهم الفاضح وعكوفهم على عبادة من لا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

وكذٰلك ما تقدم من قوله: ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفىءآللّه خير أما يشركون . أمَّنْ خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً**...﴾ إلى قوله: ﴿**قُل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾

[النمل: ٥٩ ـ ٦٤]؛ فأنكر سبحانه أن يكون معه من خلق ودبَّر وصرَفَّ وقَدَّر، أو من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، أو يولي ويعزل وينصر ويخذل، أو ينقذ من الحَيْرة ويهدي من الضلالة، أو من يبدأ الخلق ثم يعيده ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. . . إلى غير ذٰلك مما استأثر الله به، وهٰذا مما استقر في فطرهم واستيقنت به أنفسهم، ونطقت به ألسنتهم، وقامت به عليهم الحجة فيما دعت إليه الرسل من توحيد العبادة.

وقال: ﴿**قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين . قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون. . .**﴾ إلى أن قال: ﴿**كلا بل هو الله العزيز الحكيم**﴾ [سبأ: ٢٤ ـ ٢٧]؛ فأمره سبحانه أن يسلك في دعوته لقومه طريق الفطرة والعقل؛ فيستدل بتفرد الله بالآيات الكونية على توحيد الإلٰهية، وأن يلين لهم الجانب في غير ذلة ولا مداهنة، ويتلطف معهم في الدعوة والاستدلال من غير كذب ولا خداع، حتى لا تأخذهم العزة بالإثم، وذٰلك بيِّن في قوله: ﴿**وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين . قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون**﴾ [سبأ: ٢٤، ٢٥].

فهٰذا من منهج القرآن والرسل في الدعوة حجاج واستدلال، ورفق في القول، وأمر بالعرف، وحسن في السياسة من غير مداراة تذهب بالحق، وفي معنى هٰذه الآية كثير؛ كمناظرة إبراهيم ونوح وموسى وإخوانهم من النبيين لأممهم عليهم الصلاة والسلام.

ومن سلك طريق القرآن في الدعوة والاستدلال، واهتدى بهدي

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الحجاج وحسن السياسة؛ قوى يقينه، وخصم مناظره؛ فإن في ذلك الحجة والبرهان من جهتين:

الأولى: الخبر عن المعصوم.

والثانية: أنه موجب الفطرة ومقتضى العقل الصحيح.

* * * * *



الرسالة

الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ركن من أركان الدين ؛ فلا يستقيم لأحد دين ولا يُقْبلُ منه عمل إلا إذا أيقن برسالتهم ، وأذعن لكل ما جاؤوا به من الشرائع ؛ كل حسب طاقته وبقدر ما بلغه من ذلك إجمالاً أو تفصيلاً .

قال تعالى : ﴿**آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وفي الحديث : «أن جبريل سأل النبي عليهما الصلاة والسلام عن الإيمان؛ فبينه بقول : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»[1] .

ومن زعم أنه آمن ببعض الرسل دون بعض؛ لم يقبل منه ذلك ، وكان في حكم من كفر بالجميع ، وذلك لأمرين :

---

(١) أخرجه مسلم (١ / ٣٦ - ٣٧، برقم ٨) .

الأول: أن من تقدم من الرسل قد بشر بمن تأخر منهم، وأخذ عليه وعلى من تبعه العهد والميثاق؛ إن أدركهم أن يؤمنوا به وينصروه، وأن من تأخر منهم مصدق لمن بين يديه منهم، فمن كفر بواحد منهم تقدم أو تأخر؛ فهو كافر بجميعهم.

الثاني: أن الأمر الذي ثبتت به رسالة من آمن به منهم ومن أجله صدقه ـ وهو المعجزة ـ قد أجرى الله مثله على يد من كفر به من الأنبياء تصديقاً لهم في دعوى الرسالة، قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ؛ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»؛ فكان إيمانه بمن آمن به وكفره بغيره منهم اتباع للهوى، لا لدليل النبوة، وإلا؛ لآمن بالجميع، ومن كان إيمانه تبع هواه، ولو تغير هواه لتغير إيمانه؛ فليس بمؤمن في حكم الشريعة.

قال تعالى: ﴿**إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذٰلك سبيلًا. أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

والقول في رسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام يتشعب شعباً كثيرة ويرجع إلى مباحث عدة، يرجع إلى إمكان أن يوحي الله إلى بعض من يصطفيه من عباده بشريعة ليهدي بها أمته سواء السبيل، ثم إلى حاجة العالم إلى هٰذه القيادة الرشيدة والشريعة المستقيمة؛ ليكون إرسالهم على مقتضى الحكمة وموجب العدالة الإلٰهية، ثم إلى بيان ما يؤيدهم

الله به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات التي تدل على صدقهم؛ فيما ادعوه من الرسالة والبلاغ عن الله لتقوم بذلك الحجة وينقطع العذر ثم إلى بيان ما يتعلق بذلك من تنوع المعجزات وحكمته، وبيان الفوارق بين المعجزات والسحر والكهانة، وبيان ما يُعِدُّ الله به رسله قبل الرسالة من السيرة الحميدة والأخلاق الفاضلة؛ ليكون ذلك أقرب إلى أن تستجيب لهم أممهم، وتتقبل عنهم ما دعوهم إليه.

وقد تكفل الله ببيان ذلك كله خبراً وعقلاً وفطرة فيما أنزل على رسله؛ فعلمهم سبحانه طريق الحجة والبرهان التي يخضع لها العقل الصريح، وسلك بهم الطريقة المثلى التي لا يرتاب فيها إلا من سفه نفسه وأنكر فطرته.

وإليك تفصيل ذلك لتعلم أن الشرائع الإلهية تعتمد في أصولها الحجة والإقناع، وإن جاء في فروعها وتفاصيل أصولها ما قد يعجز العقل عن إدراك حكمته؛ فطريق ثبوت مثل هذا الخبر عن المعصومين عليهم الصلاة والسلام.

١ ـ إمكان الوحي والرسالة:

لا يبعد في نظر العقل ولا يستحيل في تقدير الفكر أن يختص واهبُ النعم ومفيض الخير ـ سبحانه ـ بعض عباده بسعة في الفكر، ورحابة في الصدر، وحسن قيادة، وكمال صبر، وسلامة في الأخلاق؛ ليعدهم بذلك لتحمل أعباء الرسالة، ويكشف لهم عما أخفاه عن غيرهم، ويوحي إليهم بما فيه سعادة الخلق وصلاح الكون؛ رحمة للعالمين، وإعذاراً للكافرين، وإقامة للحجة على الناس أجمعين؛ فإنه

سبحانه بيده ملكوت كل شيء وهو الفاعل المختار، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وهو على كل شيء قدير.

وآية ذٰلك أنا نشاهد الله سبحانه خلق عباده على طرائق شتى في أفكارهم ومذاهب متباينة في مداركهم:

فمنهم من سما عقله واتسعت مداركه واطلع من الكون على كثير من أسراره حتى وصل بما منحه الله من ثاقب الفكر ويسر له من التجارب إلى أن اخترع للناس ما رَفَع إليه من أجله أولو الألباب رؤوسهم إعجاباً به، وشهادة له بالمهارة، وأنكر عليه صغار العقول وعدوه شعوذة وكهانة أو ضرباً من ضروب السحر، ولم يزالوا كذٰلك حتى استبان لهم بعد طول العهد ومر الأزمان ما كان قد خفي عليهم؛ فأذعنوا له، وأيقنوا بما كانوا به يكذبون.

ومنهم من ضعف عقله، وضاقت مداركه؛ فعميت عليه الحقائق، واشتبه عليه الواضح منها، فأنكر البديهيات، ورد الآيات البينات.

ومنهم من انتهى به انحراف مِزاجه واضطراب تفكيره إلى أن أنكر ما تدركه الحواس؛ كطوائف السوفسطائية.

وكما ثبت التفاوت بين الناس في العقول والأفكار بضرورة النظر وبديهة العقل؛ ثبت التفاوت بينهم أيضاً في قوة الأبدان وضعفها، وسعة الأرزاق وضيقها، ونيل المناصب العالية، والاستيلاء على زمام الأمور وقيادة الشعوب، والحرمان من ذٰلك؛ إما للعجز، وإما للقصور أو التقصير، وإما لحِكم أخرى يعلمها بارىء الكائنات؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، وربما كُشِفَ الغطاءُ عن الكثير لمن تدبر القرآن وعرف

سيرة الأنبياء وتاريخ الأمم وما جرى عليها من أحداث.

فمن شاهد ما مضت به سنة الله في عباده من التفاوت بينهم في مداركهم وقواهم وإرادتهم وغير ذٰلك من أحوالهم؛ لم يسعه إلا أن يستسلم للأمر الواقع، ويستيقن أن الله ينبىء من شاء من خلقه ويصطفي من أراد من عباده.

﴿**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾ [النساء: **١٦٥**].

﴿**وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون**﴾ [القصص: ٦٨].

﴿**وقالوا لولا نزل هٰذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون**﴾ [الزخرف: **٣١، ٣٢**].

بل هٰذا الحوار وأمثاله مما دار بين الرسل وأممهم يدل على أنهم لم يكونوا ينكرون أصل الرسالة، ولم يكونوا يستبعدون أن يصطفي الله روحاً طيبة لوحيه، أو يختار نفساً طاهرة لتبليغ رسالته وهداية خلقه، لٰكنهم استبعدوا أن يكون ذٰلك الرسول من البشر، وظنوا خطأً أنه إنما يكون من الملائكة؛ زعماً منهم أن البشرية تنافي الرسالة، فمهما صفت روح الإنسان وسمت نفسه واتسعت مداركه؛ فهو في نظرهم أقل من أن يكون أهلاً لأن يوحي الله إليه، وأحقر من أن يختاره سبحانه لتحمل أعباء رسالتهم.

وقد ذكر الله عنهم هٰذه الشبهة، وردها بما لا يسع العاقل إلا قبوله والإذعان له، ومن نظر في الكتب المنزلة وتصفح ما رواه علماء الأخبار مما دار بين الأنبياء وأممهم من الجدال والحجاج؛ اتضح له ذٰلك، قال تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين. . .**﴾ الآيات إلى قوله ﴿**قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين**﴾ [هود: ٢٥ ـ ٣٣]؛ فانظر كيف فروا من ميدان المناظرة إلى استعجال الهلاك، وطلبوا ذٰلك من نوح؛ فبين لهم أن ذٰلك إلى الله لا إليه، إن عليه إلا النصح والبلاغ المبين، وإقامة الحجة والبرهان.

وقال تعالى: ﴿**كذبت ثمودُ بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنَّا إذاً لفي ضلال وسُعر . أءلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشر**﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٢٦]؛ فذكر شبهتهم، ثم ردها بما آتاه من المعجزة الدالة على صدقه وبنصره وإهلاكهم؛ فإن العاقبة للمتقين.

وقال تعالى: ﴿**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً**﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى: ﴿**قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات**

والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجلٍ مسمىً قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مِثْلُنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولٰكنَّ الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [إبراهيم : ١٠ - ١١] .

. . . إلى غير ذٰلك من الآيات التي دلت على أن إنكار الأمم لم يكن لأصل الرسالة، إنما كان لبعث رسول إليهم من جنسهم .

ولو قال قائل : إن أئمة الكفر وزعماء الضلالة كانوا يوقنون بإمكان أن يرسل الله رسولاً من البشر، غير أنهم جحدوا ذٰلك بألسنتهم حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وتمويهاً على الطغام من الناس، وخداعاً لضعفاء العقول، وتلبيساً عليهم خشية أن يستجيبوا إلى مقتضى الفطرة، ويسارعوا إلى داعي الدين ومتابعة المرسلين، لو قال ذٰلك قائل ما كان بعيداً عن الحقيقة ولا مجافياً للصواب ؛ بل بدرت منهم البوادر التي تؤيد ذٰلك وتصدقه، وسبق إلى لسانهم ما يرشد البصير إلى ما انطوت عليه نفوسهم من الحسد والاستكبار أن يؤتى الرسل ما أوتوا دونهم، وأن ينالوا من الفضيلة وقيادة الأمم إلى الإصلاح ما لم ينل هٰؤلاء .

قال تعالى : **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله اللهُ أعلم حيث يجعل رسالته﴾** [الأنعام : ١٢٤] .

﴿وقالوا لولا نزل هٰذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾ [الزخرف : ٣١] .

وقال: ﴿**ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهٰذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هٰذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين**﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

هٰذا، وليس بدعاً أن يختار الله نبيّاً من البشر، ويبعث إليهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيتـه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ بل ذٰلك هو مقتضى الحكمة وموجب العقل.

فإن الله سبحانه قد مضت سنته في خلقه أن يكونوا أنواعاً مختلفة، على طرائق شتى وطبـائـع متبـاينة، لكل نوع غرائزه وميوله أو خواصُّه ومميزاته التي تقتضي الأُنس والتآلف بين أفراده، وتساعد على التفاهم والتعاون بين جماعاته؛ ليستقيم الوجود، وينتظم الكون؛ فكان اختيار الرسول من الأمة أقرب إلى أخذها عنه وأدعى إلى فهمها منه وتعاونها معه لمـزيد التنـاسب ومكان الإلف بين أفراد النوع الواحد، ولو كان عمار الأرض من الملائكة؛ لاقتضت الحكمة أن يبعث الله إليهم ملكاً رسولاً، وقد أرشد الله إلى ذٰلك في رده على من استنكر أن يُرْسَلَ إلى البشر رسول منهم، قال تعالى: ﴿**وما منع الناس أن يؤمنـوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالـوا أبَعَثَ اللهُ بشـراً رسولاً . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً**﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، ولٰكن شاء الله أن يجعل عمار الأرض من البشر؛ فاقتضت حكمته أن يرسـل إليهم رسولاً من أنفسهم، بل اقتضت حكمته ما هو أخص من ذٰلك؛ ليكون أقرب إلى الوصول للغاية وتحصيل المقصود من الرسالة،

فكتب على نفسه أن يرسل كل رسول بلسان قومه.

قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء**﴾ [إبراهيم: ٤].

ولو قدر أن الله أجاب الكفار إلى ما طلبوا من إرسال مَلكٍ إليهم؛ لجعل ذٰلك المَلَك في صورة رجل ليتمكنوا من أخذ التشريع عنه والاقتداء به فيما يأتي ويذر، ويخوض معهم ميادين الحجاج والجهاد؛ وإذ ذاك يعود الأمر سيرته الأولى، كما لو أرسل الله رسوله من البشر، ويقعون في لَبَس وحيرة؛ جزاءً وفاقاً، قال تعالى: ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون**﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

ومن نظر في آيات القرآن، وعرف تاريخ الأمم؛ تبين له أن سنة الله في عباده أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم.

قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون . بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفي ذٰلك الرد الواضح على من زعم منافاة البشرية للرسالة ببيان سنة الله في رسله وحكمته في اختيارهم على نحو يكفل المصلحة وينتهي بالأمة إلى المقصود.

٢ ـ حاجة العالم إلى الرسالة:

الأفعال الاختيارية منها ما تُحمد عاقبته؛ فيجمل بالعاقل فعله والحرص عليه، ولو ناله في سبيل تحصيله حرج ومشقة، وأصابه منه في عاجل أمره كثير من الآلام، ومنها من تسوء مغبته؛ فيجدر بالعاقل أن يتماسك دونه، وأن يتنكب طريقه خشية شره، وطلباً للسلامة من ضره؛ وإن كان فيه ما فيه من اللذات العاجلة التي تغري الإنسان بفعله وتخدعه عما فيه سلامته، غير أن العاقل قد يَقْصر في كثير من شؤونه عن التمييز بين حسن الأفعال وقبيحها، ونافعها وضارِّها؛ فلا بدَّ له من مُعين يساعده على إدراك ما قصر عنه إدراكه، وقد يعجز كليّاً عن العلم بما يجب عليه علمه؛ لأنه ليس في محيط عقله ولا دائرة فكره، مع ما في علمه به من صلاحه وسعادته، وذٰلك كمعرفته بالله واليوم الآخر والملائكة تفصيلاً؛ فكان في ضرورة إلى أن يهديه الطريق في أصول دينه، وقد يتردد في أمر؛ إما لعارض هوى وشهوة، أو لتزاحم الدواعي واختلافها؛ فيحتاج إلى من ينقذه من الحَيْرة، ويكشف له عن حجاب الضلالة بنور الهدى، فبان بذٰلك حاجة العالم إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويكلمهم بمعرفة ما قصرت عنه أفهامهم، ويوقفهم على حقيقة ما عجزوا عنه، ويدفع عنهم آلام الحَيْرة ومضرة الشكوك.

أضف إلى ذٰلك أن تفاوت العقول وتباين الأفكار واختلاف الأغراض والمنازع ينشأ عنه تضارب الآراء وتناقض المذاهب، وذٰلك يفضي إلى سفك الدماء، ونهب الأموال، والاعتداء على الأعراض، وانتهاك الحرمات، وبالجملة ينتهي إلى تخريب وتدمير لا إلى تنظيم

وحسن تدبير، ولا يرتفع ذٰلك إلا برسول يأتي بفصل الخطاب، ويقيم الحجة، ويوضح المحجة، وينشر العدل؛ فاقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل، وينزل الكتب؛ رحمة بعباده، وإقامةً للعدل بينهم، وتبصيراً لهم بما يجب عليهم من حقوق خالقهم، وإعانةً لهم على أنفسهم، وإعذاراً إليهم؛ فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذٰلك أرسل الرسل وأنزل الكتب.

ففي الحديث: أن سعد بن عبادة؛ قال: «لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح. فبلغ ذٰلك رسول الله ﷺ؛ فقال: «تعجبون من غَيَرَة سعد؟! لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذٰلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذٰلك وعد الجنة»»(١).

ومما تقدم يعلم أن إرسال الله الرسل مما يدخل في عموم قدرته وتقتضيه حكمته فضلاً من الله ورحمة، والله عليم حكيم، وهٰذا هو القول الوسط والمذهب الحق.

وقد أفرط المعتزلة؛ فقالوا: إن بعثة الرسل واجبة على الله؛ إبانة للحق، وإقامة للعدل، ورعاية للأصلح، وهٰذا مبني على ما ذهبوا إليه من القول بالتحسين والتقبيح العقليين، وبناء الأحكام عليهما ـ ولو لم يرد شرع ـ، وهو أصل فاسد.

---

(١) تقدم تخريجه.

وتطرف البراهمة؛ فأحالوا أن يصطفي الله نبيّاً ويبعث من عباده رسولاً، وزعموا أن إرسالهم عبث؛ إما لعدم الحاجة إليهم اعتماداً على العقل في التمييز بين المصالح والمفاسد، واكتفاءً بما يدركه مما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد، وإما لاستغناء الله عن عباده وعدم حاجته إلى أعمالهم، خيراً كانت أو شرّاً؛ إذ هو سبحانه لا ينتفع بطاعتهم ولا يتضرر بمعصيتهم.

وقد سبق بيان عدم كفاية العقل في درك المصالح والمفاسد وحاجة العالم إلى الرسالة؛ تحقيقاً لمصالحهم، مع غنى الله عن الخلق وأعمالهم؛ فليس إرسالهم عبثاً، بل هو مقتضى الحكمة والعدالة.

٣ ـ طريقة الرسل في إثبات العبادة:

لم يَدْعُ الأنبياء أممهم إلى الإيمان بما جاؤوا به من الشرائع دون بينة أو برهان يكون شاهدَ صدقٍ على إثبات أن ما دعوهم إليه وحي من الله وشرعه الذي ارتضاه لعباده ديناً، ولم يلزموهم بذلك دون إقناع تقوم به الحجة ويسقط به العذر، بل تحدى كل رسول أمته بما آتاه الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، التي يخضع لها العقل السليم، وتتصاغر أمامها قوى البشر، وطلب منهم أن يأتوا بمثل ما ظهر على يده من خوارق العادات ـ وأنى لهم ذلك وهو من اختصاص واهب القوى والقدر ـ، فلما عجزوا عنه؛ كان دليلاً واضحاً على صدقهم في دعوى الرسالة، وأن ما جاؤوا به شرع الله ودينه الحق.

فإن لله سبحانه من كمال الحكمة والعدالة وسعة الرحمة والجود وسابغ الكرم والإحسان ما يمتنع معه أن يؤيد متنبئاً كذاباً يخدع العباد

ويفسد عليهم أمر دينهم ودنياهم، بل يستحيل في حكمه وعدله أن يبقي عليه أو يهمله؛ لما في ذلك من التلبيس والتضليل وفساد الكون وتخريبه، وهو شر محض؛ والشر ليس إليه سبحانه؛ ففي الحديث: «الخير كله بيديك، والشر ليس إليك».

وقد بين سبحانه أنه بالمرصاد لمن افترى عليه كذباً، أو قال أوحي إليّ ولم يوحَ إليه شيء؛ فقال تعالى: ﴿**ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين**﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وإذاً؛ أبت حكمة الله وسعة رحمته أن يترك عباده سدى، فلا يرسل إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم، ويبين لهم معالم الهدى وشرائع الحق؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حَيَّ عن بينة، فأولى في حكمه العدل ورحمته الواسعة أن يقضي على المتنبئين كذباً وافتراءً، وأن يعاجلهم بالعقوبة والهلاك؛ رحمة للعالمين، وتمييزاً بين رسله الصادقين والمتنبئين الكاذبين.

٤ ـ الفرق بين المعجزة والسحر:

كل ما لم تبلغه طاقة البشر ولم يقع في دائرة قدرتهم؛ فهو معجز، وقد تطلق المعجزة على ما خرج من طاقة العامة من الخلق دون الخاصة؛ كبعض المسائل العلمية المشكلة، واختراع بعض الآلات والأجهزة الحديثة ونحوها مما لا يقوى عليه إلا الخواص من الناس؛ كالغوص والسباحة وحمل الأثقال، وهٰذا عجز نسبي يكون في مخلوق دون آخر.

والمراد من المعجزة: هٰذا الأمر الخارق للعادة، الخارج عن سنن الله العامة في خلقه، الذي يظهره الله على يد مدعي النبوة؛ تصديقاً له في دعواه، وتأييداً له في رسالته، مقروناً بالتحدي لأمته ومطالبتهم أن يأتوا بمثله، فإذا عجزوا؛ كان ذٰلك آية من الله على اختياره إياه وإرساله إليهم بشريعته.

أما السحر؛ فهو في اللغة: كلّ ما دق ولطف وخفي سببه؛ فيشمل قوة البيان، وفصاحة اللسان؛ لما في ذٰلك من لطف العبارة ودقة المسلك، ويشمل النميمة؛ لما فيها من خفاء أمر النمّام وتلطفه في خِداع من نَمَّ بينهما ليتم له ما يريد من الوقيعة، ويشمل العزائم والعقد التي يعقدها الساحر وينفخ فيها مستعيناً بالأرواح الخبيثة من الجن ليصل بذٰلك ـ في زعمه ـ إلى ما يريد من الأحداث والمكاسب.

فيتلخص الفرق بين المعجزة والسحر فيما يأتي:

أ ـ المعجزة ليست من عمل النبي وكسبه، إنما هي خلق محض من الله على خلاف سننه في الكائنات، وقد طُلِب من محمد ﷺ آية؛ فقال بإرشاده مولاه: ﴿**إنما الآيات عند الله**﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقال لمن استعجلوا ما توعدهم به بأمر ربه: ﴿**ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقصُّ الحق وهو خير الفاصلين . قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين**﴾ [الأنعام: ٥٧، ٥٨].

أما السحر؛ فمن عمل الساحر وكسبه، سواء أكان تعويذات أم

بياناً أم نميمة أم غير ذٰلك، وله أسبابه ووسائله التي قد تنتهي بمن عرفها ومهر فيها وعمل بها إلى مسبباتها؛ فليس خارقاً للعادة، ولا مخالفاً لنظام الكون في ربط الأسباب بمسبباتها والوسائل بمقاصدها.

ب ــ المعجزة تظهر على يد مدعي النبوة؛ لتكون آية على صدقه في دعوى الرسالة التي بها هداية الناس من الضلالة وإخراجهم من الظلمات إلى النور، والأخذ بأيديهم إلى ما ينفعهم في عقائدهم وأخلاقهم وأبدانهم وأموالهم.

والسحر خلق ذميم أو حرفة أو صناعة يموه بها الساحر على الناس ويضللهم، ويخدعهم بها عن أنفسهم وما ملكت أيديهم، ويتخذها وسيلة لكسب العيش من غير حلَّة، ويفرق بها بين المرء وزوجه والصديق وصديقه، وبالجملة يفسد بها أحوال الأمة في خفاء والناس عنه غافلون.

ج ــ سيرة من ظهرت على يده المعجزة حميدة وعاقبته مأمونة؛ فهو صريح في القول والفعل، صادق اللهجة، حسن العشرة، سخيٌّ، كريم، عفيف عما في أيدي الناس، يدعو إلى الحق وينافح[1] عنه بقوة وشجاعة.

أما الساحر؛ فسيرته ذميمة، ومغبته وخيمة، خائن، خدَّاع، سيىء العشرة، يأخذ ولا يعطي، يدعو إلى الباطل، ويسعى جهده في ستره خشية أن يفتضح أمره ويكشف سره؛ فلا يتم له ما أراد من الشر والفساد.

د ــ من ظهرت على يده المعجزة يقود الأمم والشعوب إلى الوحدة

---

(١) ينافح: يدافع.

والسعادة، ويهديها طريق الخير، وعلى يده يسود الأمن والسلام وتفتح البلاد، ويكون العمران، والساحر آفة الوحدة ونذير الفرقة والتخريب والفوضى والاضطراب.

٥ ـ تنوع المعجزة مع بيان الحكمة في ذلك:

آيات الأنبياء التي أيدَّ الله بها رسله قد اختلفت أنواعها وتباينت مظاهرها وأشكالها؛ إلا أنها تجتمع في أن كلًّا منها قد عجز البشر عن أن يأتوا بمثله منفردين أو مجتمعين؛ فكانت بذلك شاهدَ صدقٍ على الرسالة، وحجة قاطعة تُخرس الألسنة، وينقطع عندها الخصوم، ويجب لها التسليم والقبول.

ويغلب أن تكون معجزة كل رسول مناسبة لما انتشر في عصره وبرز فيه قومه، وعُرفوا بالمهارة فيه؛ ليكون ذلك أدعى إلى فهمها، وأعظم في دلالتها على المطلوب، وأمكن في الإلزام بمقتضاها.

ففي عهد موسى؛ انتشر السحر، ومهر فيه قومه؛ حتى أثروا به على النفوس، وسحروا أعين الناظرين، وأوجس في نفسه خيفة منه من شهده، وإن كان عال الهمة قوي العزيمة؛ فكان ما آتاه الله نبيه موسى فوق ما تبلغه القوى والقدر، وما يدرك بالأسباب والوسائل، وقد أوضح الله ذلك في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى . قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهشُ بها على غنمي ولي فيها مآربُ أُخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هي حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يدك إلى جناحك تخرج**

بيضاء من غير سوءٍ آية أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى﴾ [طه: ١٧ - ٢٣]، ولهٰـذا بهت السحرة، وبطل ما جاؤوا به من التمويه والتخييل، وامتاز الحق من الباطل.

قال تعالى في بيان ذٰلك في المباراة التي كانت بين موسى عليه السلام والسحرة: **﴿فألقي السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون﴾**[الشعراء: ٤٦ - ٤٨].

وفي عهد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام برع بنو إسرائيل في الطب؛ فكان مما آتاه الله أن يصور من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله . . . إلى غير ذٰلك من الآيات التي ثبتت بها رسالته، وقامت بها الحجة على قومه.

وفي عهد محمد ﷺ كان العرب قد بلغوا الغاية في الفصاحة وقوة البيان، وجرت الحكمة على ألسنتهم؛ حتى اتخذوا ذٰلك ميداناً للسباق والمباراة؛ فأنزل الله القرآن على رسوله عليه الصلاة والسلام، فكانت بلاغته وبيانه وما تضمنه من الحِكم والأمثال جانب ما كان من تأييد إعجازه.

قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[١].

---

(١) أخرجه: البخاري، ومسلم؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٦ ـ معجزات الأنبياء لا تنحصر فيما تحدى به كل نبي قومه:

وليست معجزات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام قاصرة على ما ذكر، وإنما ذٰلك بيان لما تحدى به كل منهم قومه، وجعله قاعدة يبني عليها دعوته ويثبت بها شريعته، وإلا؛ فلهٰؤلاء وغيرهم من الأنبياء كثير من الآيات البينات والدلائل الواضحات التي دلت على صدقهم سوى ما تحدى به كل نبي قومه:

منها ما يرجع إلى سيرتهم قبل الرسالة؛ فإن الله قد أعدهم لتحمل أعباء رسالته.

ومنها ما يرجع إلى إثبات جأشهم وقوة بأسهم في مقام الدعوة والجهاد في سبيل الله؛ نصرة للحق، ونشراً له بنفسه وبمن آمن معه، وما أقلهم عدداً وأضعفهم جاهاً، مع غنى خصومهم وكثرة عددهم وعُدَدِهم وقوة سلطانهم... إلى غير ذٰلك مما يدل على صدق الداعي في دعوته وكمال يقينه بها.

ومنها ما يرجع إلى سلامة الشريعة التي يدعون إليها، وحكمتهم في حمل الناس عليها، وقوة حججهم في الدفاع عنها، وما شوهد من آثارها في صلاح من اهتدى بها من الأمم في الدولة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والحرب والسلم، وغير ذٰلك من أحوال الشعوب، حتى إذا حرفوها عن مواضعها وتأولوها على غير وجهها، أو أعرضوا عنها وتركوا العمل بها؛ دالت دولهم وساءت حالهم؛ فإن العاقبة للمتقين، والخيبة والخسران على المفسدين.

ومن ذٰلك يتبين أن الرسالة ليست شعوذة ولا كهانة؛ فإن الرسل

عُرفوا بالصدق والأمانة، والشياطين إنما تُتْرك على من يجانسهم في الكذب والافتراء والإفك والبهتان.

قال تعالى: ﴿**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تَنزَّلُ على كل أفاكٍ أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون**﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]، ولو لمست الشياطين السماء استراقاً للسمع أو طلباً للوحي؛ ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

قال تعالى في شأن القرآن: ﴿**وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون**﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

وليست الرسالة ما تجود به قريحة الشعراء وتمليه عليهم مشاعرهم مما تهواه نفوسهم؛ فإن الشعراء - إلا من عصم الله - يغلب عليهم أن يسلكوا كل فج، ويضربوا في كل وادٍ، ومن سلك سبيلهم كان على شاكلتهم في الغي والفساد.

أما الرسل؛ فقد جاؤوا بالهدى ودين الحق، ومن سلك سبيلهم كان على بصيرة في عمله، وبينة من أمره، واستقامة في سيره.

قال تعالى: ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . .**﴾ الآية [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

ومن المعجزات ما يرجع إلى آيات حسية أكرم الله بها رسله ومن آمن بهم؛ من تفريج كربة، وإزالة شدة، أو خوارق عادات طلبتها الأمة

بغياً وعناداً؛ كانشقاق القمر، فأجيبت إليها دفعاً للحرج عن الرسل وزيادة في التثبيت لهم والإعذار إلى من كفر بهم، ومنها ما يرجع إلى تعليم الصناعات وتيسير طريقها؛ كإسالة عين القِطر، وإلانة الحديد لداود عليه السلام على خلاف السنة الكونية؛ ليكون ذٰلك آية له وكرامة، وليكون سعة للعباد ورحمة لهم، وكتسخير الريح والطير والجبال والجن لسليمان عليه السلام . . . إلى غير ذٰلك مما لا يحصيه إلا الله.

ومن اطلع على قصص الأنبياء في القرآن وكتب السير؛ وجد الكثير من ذٰلك، وسأذكر جملة منها بعد ترشد إلى ما ورائها مما لم يذكر إن شاء الله.

بيَّن سبحانه لرسوله محمد ﷺ في كثير من قصص القرآن الطريقة المُثلى التي يثبت بها رسالته ويحاج بها أمته، وأرشده إلى كون ذٰلك القصص آية بينة توجب عليهم أن يستجيبوا لما دعاهم إليه من التصديق برسالته والإيمان بسائر ما جاءهم به من عند الله.

من ذٰلك قصة يوسف عليه الصلاة والسلام.

إن هٰذه القصة فيها كثير من العجائب والعبر والعظات والأحكام والأخلاق وألوان الابتلاء والامتحان والفضل والإحسان، والذي أقصد إليه من مباحثها أمرين لمزيد اتصالهما بما أنا بصدد الكلام عليه:

الأول: كيف كانت هٰذه القصة معجزة لرسول الله محمد ﷺ.

والثاني: كيف كانت دليلاً على أن الله يُعِدُّ رسله في حياتهم الأولى قبل الرسالة لتحمل أعبائها حين إرسالهم إلى أممهم.

أما الأول؛ فإنه تعالى ذكر قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في القرآن مفصلة؛ لتكون آية، بل آيات على نبوة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام.

وبيان ذٰلك أنه كان أمياً، لم يقرأ شيئاً من كتب الأولين، ولا درس شيئاً من تاريخهم، ولا خطَّ من ذٰلك شيئاً بيمينه حتى يرتاب في أمره ويُتهم بأنه تكلم بما قرأ أو درس، قال تعالى: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبْطلون**﴾ [العنكبوت: ٤٨]، بل كان من الغافلين عن قصة يوسف وأمثالها، لم تخطر له ببال، ولم تقرع له سمعاً قبل أن يوحي الله بها إليه ويذكرها له في محكم كتابه.

قال تعالى في مطلع سورة يوسف: ﴿**تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هٰذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾ [يوسف: ١ - ٣].

وقال بعد ذكر يوسف لرؤياه وعرضها على أبيه ووصية أبيه له: ﴿**لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين**﴾ [يوسف: ٧].

ولم تكن قصة يوسف بالأمر الذي اشتهر في العرب وتناولوه بالحديث فيما بينهم، بل كانت غيباً بالنسبة إليهم، ولا كان محمد مع يوسف وإخوته، ولا شهد مكرهم به ولا كيدهم له؛ فيتهم بأنه تكلم بأمر شهده أو انتشر بين قومه، قال تعالى لنبيه محمد في ختام قصة يوسف عليهما الصلاة والسلام: ﴿**ذٰلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهو يمكرون**﴾ [يوسف: ١٠٢].

ولا يسع أحد أن يقول: إنه عرف تفاصيل القصة من اليهود؛ فإن السورة مكية، واليهود كانوا يعيشون بالشام والمدينة وما حولها، ولم يُعرف عنه أنه اتصل بهم قبل الهجرة ولا دارسهم شيئاً من العلوم، ولو كان تم شيء من ذٰلك؛ لانكشف أمره لطول العهد، وكثرة الخصوم، وحرج قومه من دعوته وسعيهم جهدهم في الكيد له والصد عنه، وحرصهم على تشويه سمعته والقضاء عليه وعلى دعوته؛ حتى رموه بالسحر والكهانة والجنون، واتهموه زوراً بالكذب، وهو في قرارة أنفسهم الصادق الأمين، وتبادلوا الرأي فيما يوقعونه به من حبسه أو طرده من بينهم وتشريده، وانتهى أمرهم بالاتفاق على قتله، فأنجاه الله من كيدهم، وكتب له الهجرة إلى المدينة حيث عز الإسلام وقامت دولته.

قال تعالى: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله واللهُ خير الماكرين**﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ فقومٌ هٰذا شأنهم معه لا يخفى عليهم أمره وهو يعيش بين أظهرهم وهم له بالمرصاد، فلو وجدوا سبيلاً إلى الطعن عليه باتصاله باليهود والأخذ عنهم؛ لسارعوا إلى فضيحته والتشنيع عليه بذلك، ولم يضطروا إلى الافتراء عليه، ولا إلى التفكير في قتله أو تشريده، ولا إلى نشوب الحرب بينه وبينهم سنين طويلة، ولم يلجئوا إلى اتهامه تهمة تحمل ردها في طيها؛ فقد اتهموه برجل أعجمي بمكة، وادعوا أنه يعلِّمه؛ فسفه الله أحلامهم وألقمهم الحجر.

قال تعالى: ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهٰذا لسانٌ عربي مبين**﴾ [النحل: ١٠٣].

وليست قصة يوسف خبراً مقتضباً عبر عنه بالجملة أو الجملتين، فيقال: إن صدقه في الحديث عنها وليد الصدفة والاتفاق، بل هي قصة كثيرة العجـائب، متشعبة الموضوعات، وقعت بين أطراف مختلفة في أزمان متباعدة، فمن رؤيا صادقة، إلى مؤامرة، ثم نجاة يتبعها بيع، ثم إيواء... إلى مراودة يتبعها هم، ثم عصمة من الفحشاء... إلى سجن فيه دعـوة إلى التوحيد، مع رفق وحسن سياسة، وتأويل للرؤيا أصدق تأويل، يتبع ذٰلك خروجه عليه السلام من السجن بريئاً من التهمة، وتوليه شؤون الدولة، واجتماع إخوته به مع معرفته لهم بإنكارهم إياه، وما أكثر ما دار بينه وبينهم من الأحاديث وما جرى من الأحداث، إلى أن انتهى ذٰلـك بتعـريفـه لهم بنفسـه وعفوه عنهم، وحضور أبويه إليه على خير حال... إلى غير ذٰلك من التفاصيل التي يعرفها البصير بكتاب الله.

وقـد سيقت القصة مفصلة في جميع نواحيها مستوفاة في جميع فصولها في أدق عبارة وأحكم أسلوب؛ أفيعقل بعد ذٰلك أن يقال: إن صدقـه عليه الصلاة والسلام فيما سرده من قضاياها ووقائعها وعجائبها على هٰذا النهج الواضح والطريق السوي وليد الصدفة والاتفاق؟!

ختم سبحانه سورة يوسف بمثل ما بدأها به من الإرشاد إجمالاً إلى القصد الذي من أجله سيقت القصة، وهو أن تكون آية على نبوة محمد ﷺ وصدقه فيما جاء به من التشريع، وأن قصة يوسف ونحوها مما نزل به الـوحي مستقى من المشكـاة التي أخـذ منها الأنبياء؛ فليس حديثاً مفترى، ولٰكنه تصديق لما بين يديه من كتب المرسلين، وتفصيل لما يحتـاج إليه المكلفـون من التشـريع في معـاشهم ومعادهم وجمـاع

الهداية والرحمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

أفيمكن أن تكون هٰذه القيادة الرشيدة بهٰذا التشريع المستقيم من إنسان أمي عاش في أمة أمية من عند نفسه دون وحي من الله؟

كلا، إنها العناية الربانية والرسالة الحقة والوحي الصادق المبين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ؛ ليكون رحمة للعالمين، **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولٰكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء هدىً ورحمة لقوم يومنون﴾** [يوسف: ١١١].

وأما الثاني؛ فإن في تفاصيل القصة كثيراً من الأسرار والعجائب التي يعد الله بها رسله، ويهيىء بها أنبياءه لقيادة الأمم وسياسة الشعوب؛ من أخلاق سامية، وآداب عالية، وحكمة بالغة، وقوة عزيمة، وعقائد صحيحة، وبيان ذٰلك من وجوه كثيرة:

أ ــ منها: صفاء روح يوسف، ونقاء سريرته، وهٰذا واضح من الرؤيا الصادقة التي رآها في صغر سنه وأول نشأته؛ فتحقق تأويلها بسجود أبويه وإخوته له في كبر سنه وختام حياته، **﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين...﴾** [يوسف: ٤]، **﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجداً وقال يا أبت هٰذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقّاً﴾** [يوسف: ١٠٠].

ب ــ ومنها ما خصَّه الله به من الميزات التي زادت تعلق والده به

وحبه له، وحملت إخوته على التآمر عليه والكيد له؛ فأشار بعضهم بقتله ليخلو لهم وجه أبيهم وتطيب لهم الحياة مع أبيهم من بعده، ورأى آخرون أن في إبعاده عن أبيه الكفاية، فلما أجمعوا أمرهم على ذٰلك، ورموه في غيابة الجب؛ أوحى الله إليه لتنبئنهم بأمرهم هٰذا وهم لا يشعرون؛ إيناساً له، وإزاحة للغمة عن نفسه، وهيأ له من أخرجه من البئر، لٰكنهم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، فرعاه الله وجعله عند من يكرم مثواه، ومكن له في الأرض، وعلمه من تأويل الأحاديث، ﴿**والله غالب على أمره ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾ [يوسف: ٢١].

ج ـ ومنها الحلم والصفح الجميل، وسعة الصدر والصبر على البلاء؛ فإنه بعد أن مكن الله له وجعله على خزائن الأرض، واجتمع بإخوته؛ لم ينتقم لنفسه، بل صفح عن الزلة، وعفا عند القدرة، واكتفى بالإشارة في إشعارهم بما سبق من سوء صنيعهم معه، ﴿**قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهٰذا أخي قد مَنَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**﴾ [يوسف: ٨٩ ـ ٩٢].

د ـ ومنها: عفة فرجه، ونزاهة نفسه مع توفر دواعي الشهوة وتهيىء أسباب الجريمة؛ من تكرار الخلوة بامرأة العزيز، ومزيد الخلطة، ودعوتها إياه للفاحشة، وحياته معها في بيتها، وأخذها الحيطة بإغلاق الأبواب.

لقد كان يوسف من المخلصين لله الواثقين به، فاستعاذ بربه ولاذ بجنابه، واستقبح أن يقابل جميل من أحسن مثواه بخيانته في عرضه، وذكر ما يصيب الظالمين في العواقب من الدمار والخسارة، وبذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء، وأظهر براءته على رؤوس الأشهاد، ﴿**وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغَلَّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين. . .**﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٤] إلى أن قال تعالى حكاية عن عزيز مصر بعد الشهادة عنده ببراءة يوسف: ﴿**يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين. . .**﴾ [يوسف: ٢٩] إلى أن قال تعالى حكاية لحديث امرأة العزيز مع النسوة اللاتي عيرنها بشغفها وتعلقها بيوسف: ﴿**ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين**﴾ [يوسف: ٣٢].

لقد عرف يوسف عليه الصلاة والسلام طريق الخلاص؛ ففزع إلى من بيده القلوب ومقاليد الأمور يصرفها كيف يشاء، وتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته حينما سمع إنذارها له بالسجن إن لم يكن عند رغبتها ويحقق لها ما تريد، وسأل ربه أن يعصمه من الزلل ويصرف عنه كيد أولئك النسوة، ﴿**قال رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهنَّ وأكن من الجاهلين**﴾ [يوسف: ٣٣]، وما كان الله ليرد عبداً اتقاه، وأخلص له الدعاء، وكان السجن أحب إليه من الفحشاء؛ ﴿**فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع**

العليم . ثم بدا لهم من بعد ما رأووا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ [يوسف: ٣٤، ٣٥].

هـ - ومنها: أنه لم يشغله ما أصيب به من تتابع البلاء عن ربه ودينه والدعوة إلى ما ورثه من التوحيد عن آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام؛ فانتهز حاجة من معه في السجن إليه في تأويل ما رأياه في منامهما، فبدأ بالحديث عن نفسه تعزيزاً لمركزه حتى يقبل عنه قوله، ثم نصح لهما في التوحيد وزينه، وحذرهما عن الشرك وقبحه، وأقام على ذٰلك الحجة مع لطف وتذكير بالصحبة في البلاء، كل ذٰلك قبل تأويل الرؤيا؛ ليكون أدعى إلى الإصغاء والقبول وأبعد عن الإعراض.

وقد أطال في ذٰلك وجعله المقصود، ثم ختم بتأويل الرؤيا لهما في آية قصيرة، قال تعالى: **﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذٰلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذٰلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولٰكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألَّا تعبدوا إلا إياه ذٰلك الدين القيِّم ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربهُ خمراً وأما الآخر**

فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤١].

فانظر إلى سلامة فطرته وصحة عقيدته وتناسيه البلاء وذكره لأسلافه وأمجاده الطاهرين المصلحين؛ ليتخذ منهم قدوة له في التوحيد والدعوة إليه والحذر من الشرك، وبيان فساده بالحجة والبرهان، وانظر إلى كرم خلقه مع صاحبيه حتى شهدا له بالمعرفة والفضل والإحسان، وإلى حسن سياسته معهم في الدعوة إلى الله وإيثارها على ما سألاه عنه دون تضييع لما تعلقت به نفوسهما من تأويل الرؤيا، ولا مجابهة بالمكروه لمن دلت رؤياه على سوء عاقبته؛ بل أبهم الأمر؛ فقال: **﴿أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾**، وقد حقق الله ما قال؛ فصار كل منهما إلى ما ذكر له في تأويل رؤياه.

و ـ ومنها: أن يوسف مع ثقته بربه وتوكله عليه أراد أن يأخذ بأسباب الخلاص مما أصابه من البلاء، وليس في ذلك ما يعيبه أو يغض من توكله على الله؛ فإنه قد زجّ به في السجن ظلماً وعدواناً بشهادة خصومه ـ ودفع الظلم مشروع بل قد يكون واجباً ـ؛ فقال للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما: اذكرني عند ربك، ولكن الله أراد أن يزيده تمحيصاً وصدقاً في التوكل عليه وقوة في الصبر على البلاء، فأنسى الشيطان ذلك الفتى أن يذكر يوسف لربه بالخير، فلبث بالسجن بضع سنين، ثم اختار الله له طريقاً إلى الخلاص خيراً من الطريق التي رسمها لنفسه؛ كما سيأتي بيانه.

ز ـ ومنها: أن الله سبحانه شاء أن تكون نجاته بما آتاه من العلم

والحكمة وعلمه من تأويل الأحاديث، لا بشفاعة أحد، ولحاجة الأمة راعيها ورعيتها إليه دون حاجته إليهم؛ ليكون ذٰلك أكرم لنفسه وأعز لها، ولئلا يكون لأحد عليه سوى الله منة؛ فهيأ له السبيل لذٰلك.

ورأى ملك مصر رؤيا هاله أمرها، وعجز أشراف قومه عن تعبيرها، ﴿**وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين**﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٤].

ولما انتهى أمر الرؤيا إلى يوسف أولها أصدق تأويل، وبين أنها كشفت للأمة عن مستقبلها في رخائها وشدتها أربع عشرة سنة، ﴿**قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذٰلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذٰلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون**﴾ [يوسف: ٤٧ ـ ٤٩]؛ فأخذ ذٰلك التعبير من قلب الملك مأخذه، ولم يسعه إلا أن يرسل بإحضار يوسف إليه، فأبى حتى ينظر في قضيته مع النسوة؛ فإنه قد زجَّ به في السجن من أجلهن، ﴿**قال ارجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم**﴾ [يوسف: ٥٠]، ففعل الملك، وظهرت براءة يوسف، ﴿**قال ما خطبكن إذ راودتُنَّ يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذٰلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد**

الخائنين﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٢].

ولما طلبه الملك بعد ذلك وحضر عنده؛ **﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾** [يوسف: ٥٥]؛ ثقة منه بنفسه، وعلماً منه بأنه ليس في الأمة من يصلح لتدبير شؤون الدولة الاقتصادية وتصريف أمورها على وجه يحفظ كيانها سواه، فطلب ذلك لمصلحة الأمة لا لحظ نفسه، فاستجاب له الملك لعلمه وصدقه وأمانته، وأتم الله ليوسف ما شاء من نعمته، **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾** [يوسف: ٥٦].

وبذلك يتبين أن الله محص يوسف ورعاه بتتابع البلاء والإنجاء؛ ابتلاه بكيد إخوته له ورميهم إياه في الجب، ثم أنجاه وابتلاه ببيع السيارة له، ثم هيأ له من أحسن مثواه، ابتلاه بتسليط امرأة العزيز عليه وبالنسوة اللاتي قطعن أيديهن، ثم عصمه وحماه، وابتلاه بالسجن، ثم أخرجه منه بريئاً من التهمة عليماً بربه وبشؤون الأمة في وقت اشتدت فيه حاجة البلاد إلى حفيظ عليم يدبر أمرها ويقودها في حياتها خير قيادة؛ فتولى أمرها، واستسلم له أهلها.

وفي قصة يوسف سوى ما ذكر شيء كثير يدل على أن الله سبحانه تعهد يوسف برعايته وتولاه في أطوار حياته؛ ليختاره رسولاً يضطلع بأعباء الرسالة، وليجعل من سيرته الحميدة آيات بينات على صدقه فيما جاء به وأمانته في البلاغ عن رب العالمين.

كانت رسالة محمد ﷺ ـ بعد تتابع المعجزات على ثبوتها ـ

واضحة ظاهرة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولٰكن المشركين تعنتوا معه؛ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وأنفةً واستكباراً أن يتبعوا رجلاً منهم، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية، فهدى الله رسوله إلى أن فيما أوحي إليه من القرآن آيات بينات على نبوته، وبعد ذٰلك نبأ موسى وفرعون.

فقد أوضح له في قصصهما:

أولاً: وجه دلالته على رسالته.

وثانياً: سنته الحكمية في إعداد الأنبياء لتحمل أعباء الرسالة.

أما الأول؛ فقد ذكر سبحانه في أول سورة «القصص» بياناً عن نشأة موسى عليه الصلاة والسلام، وحاله قبل الرسالة، وأتبعه ببيان عن رسالته إلى أن أنجاه ومن آمن به وأهلك أعداءه؛ ليكون ذٰلك آية، بل آيات على نبوة محمد ﷺ فيما أنزل الله عليه من الوحي ودعا إليه أمته من الهدى؛ يرشد إلى ذٰلك قوله تعالى في مطلع السورة:

﴿**تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون**﴾ [القصص: ٢ ـ ٣].

وقوله تعالى عند انتهاء ما أراد ذكره من القصة: ﴿**وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولٰكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولٰكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولٰكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون**﴾

[القصص: ٤٤ - ٤٦].

وذكر في آخر السورة أنه ﷺ لم يكن لديه من الأسباب ما يبعث على الأمل في الرسالة، ولا من الدواعي ما يحمله على أن يحدث نفسه بها ويستشرف إليها، فضلاً عن أن يدعيها ويسعى في تحقيقها؛ فقد كان ﷺ أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يخالط أهل الكتاب حتى يتعلم منهم قصص الأنبياء وتاريخ أممهم وما جرى بينهم من الأحداث، وليس في آبائه من ملك حتى تتعلق نفسه بذٰلك ويطلب ملك آبائه، وبيان ذٰلك كما يلي:

١ ــ قدم الله بين يدي هٰذه القصة جملة من الآيات، بين فيها سنته العادلة وحكمته البالغة في القضاء على من علا في الأرض وأفسد فيها، ومَنَّه على المستضعفين والتمكين لهم وإنالتهم من عدوهم فضلاً منه ورحمة، والله عليم حكيم، قال تعالى: ﴿**ونمكن لهم في الأرض ونريَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**﴾ [القصص: ٦].

وأتبع قصة قارون وما أصابه من الهلاك بقوله: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين**﴾ [القصص: ٨٣]، هٰذه هي سنته سبحانه في عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ثم فصل ذٰلك فيما ذكره بعد من القصة.

٢ ــ ولد موسى عليه الصلاة والسلام بمصر، وكان ملكها - إذ ذاك - جباراً جائراً يقتل كل حديثي الولادة، فاضطرت أمه إلى إلقائه في اليمِّ خوفاً عليه من خطر القتل، فالتقطه آل فرعون، وحين ذاك مرّ موسى

بطور آخر من أطوار الخطر، وقضى الله لنبيه أن ينتهي بهم التفكير في أمره إلى أن يتخذه فرعون ولداً، وأن ينشأ في بيت ملك يتربى فيه على العزة وشدة البأس وقوة العزيمة والأخذ بالحزم، ولا يصاب بما أصيب به قومه من العذاب والذل والهوان، وبذٰلك يصلح لحمل أعباء الرسالة ومواجهة فرعون في جبروته وطغيانه.

ثم أولاه سبحانه نعمة أخرى؛ فكتب عليه ألا يرضع إلا من أمه، حتى اضطر فرعون ومن إليه أن يردوه إلى أمه وهم لا يشعرون، وبهٰذا التدبير الحكيم واللطف الخفي أنجز الله لأم موسى وعده؛ فرجع إليها ولدها لتكفله ويتمتع بحنانها وينعم بعطفها وتقر به عينها ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق.

هٰذه حلقة أولى من حياة موسى، كلها عبر وعظات وآيات بينات على سنته تعالى في إعداد أنبيائه قبل الرسالة؛ فمنها:

أولاً: أن الله سبحانه جعل نجاته مما أصاب غيره من أبناء قومه فيما يراه الناس دماراً بالنفس إلى التهلكة، ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين**﴾ [القصص: ٧، ٨].

ثانياً: أن الله سبحانه كتب لموسى حياة سعيدة في بيت من يخشى عليه منهم؛ فعاش بين أظهرهم عيشة الملوك، ﴿**وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون**﴾ [القصص: ٩].

ثالثاً: أن الله حرم عليه تحريماً كونيّاً أن يرضع من امرأة سوى أمه؛ فكـان ذٰلك فيما يرى الناس بلاءً أحاط به، وهو في نفس الأمر كمال اللطف من الله والـرحمـة بموسى؛ ليرجعه إلى أمه وهم لا يشعرون، فاجتمع له إلى السلامة والنجاة عطف الأمهات وعز الملوك، ﴿**وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولٰكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ [القصص: ١٢، ١٣].

وهناك سلسلة أخرى من حياة موسى قبل الرسالة تضمنت الكثير ممـا حبـاه الله به؛ من العلم، والحكمة، والمروءة، والنجدة، ونصر المظلوم، والأخذ على يد الظالم، والعطف على الضعيف، وقوة الإيمان بالله، والصـدق في الالتجـاء إليه والتـوكـل عليه، والتـواضع مع عزة النفس. . . وغير ذٰلك من مكارم الأخلاق التي يُعِدُّ الله بها من يختاره للرسالة وقيادة الأمم، وألخص ذٰلك فيما يأتي:

أولاً: حَفِظَ الله على موسى صفاء روحه وسلامة فطرته، فمع أنه عاش في أوساط ظلم وطغيان؛ لم يتأثر بما يتأثر به من قضى أيامه الأولى من حياتـه في بيئـة استشـرى فيهـا الفسـاد وطبعت بطابـع الجبـروت والاستبداد، ولم يصب بما يصاب به أبناء الوجهاء ومن يتقلب في النعمة ورغد العيش غالباً من الجهل والاستهتار أو الرخاوة والخلاعة والمجون، بل صانه الله عن كل ما يشينه، وآتاه العلم النافع والحكمة البالغة وسداد الرأي، كما حفظ عليه نعمته من قبل في بدنه، ﴿**ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذٰلك نجزي المحسنين**﴾ [القصص: ١٤].

ثانياً: جبل الله نبيه موسى على الحزم والأخذ بالقوة في نصرة المظلوم، يتجلَّى ذٰلك من الخصومة التي كانت بين إسرائيلي وفرعوني وإنصافه للمظلوم، كما طبعه الله على الرفق بالضعيف والعطف عليه ومَدّ يدِ المعونة إليه، يتبين ذٰلك فيما كان منه من النجدة حينما ورد ماء مدين، فوجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرِّعاء، وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما؛ فجمع له بين شدة البطش بالظالمين، وكمال الرفق بالمستضعفين.

ثالثاً: كان من آثار عناية الله بموسى ورعايته له أن قوَّى فيه الوعي الديني، واستحكمت فيه الصلة بينه وبين ربه؛ فأحب ما يحبه الله من العدل والإنصاف، وكره ما يبغضه الله من الظلم والعدوان، لذٰلك فزع إلى ربه واعترف بظلمه لنفسه حينما قضى القبطي نحبه من وكزته، وأسرع في الأوبة إليه من ذنبه، فغفر الله له، فأخذ على نفسه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين؛ شكراً لله على نعمته، ووفاءً له بما غفر من ذنبه، ﴿**قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين**﴾[القصص: ١٦، ١٧].

رابعاً: فاض قلبه إيماناً بالله، وعظمت ثقته به وتوكله عليه؛ فقصد إليه وحده في غربته وحيرته رجاء أن يهديه سواء السبيل، ﴿**ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل**﴾[القصص: ٢٢].

ولما اشتدت به الحاجة وأخذ منه الجوع مأخذه؛ توجه إلى ربه

وسأله من فضله، وأبت عليه عزة نفسه أن يشكو حاجته لغيره، أو يُعَرِّض لمن سقى لهما بطلب الأجر، ﴿**فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير**﴾ [القصص: ٢٤]، وقد استجاب الله دعاه، وهيأ له بيئة صالحة يحيا فيها حياة طيبة؛ فقد عرض عليه شعيب لما عرف عنه من القوة والأمانة أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يرعى له الغنم ثماني حجج، فإن أتم عشراً؛ كان ذٰلك مكرمة منه؛ فالتزم موسى بذٰلك، ولم يمنعه ما كان فيه أولاً من رغد العيش وحياة الملوك أن يكون أجيراً يأكل ويتزوج من كسب يده، وأشهد ربه على ذٰلك؛ ﴿**قال ذٰلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيل**﴾ [القصص: ٢٨]، وقد ثبت أنه أتم أبعد الأجلين؛ فدل على أنه طبع على حب الخير وفعل المعروف.

وحلقة ثالثة من حياة موسى عليه الصلاة والسلام بعد الرسالة يتجلى فيها ما حباه الله به ليكون أصلاً له يعتمد عليه في إثبات رسالته وطريقاً يسلكه في محاجة خصومه وإبلاغهم ما جاء به من الهدى والرشاد، ويتبين ذٰلك في مواضع من القصة؛ منها:

أولاً: طلب موسى من ربه أن يشد أزره بأخيه هارون، فإنه أفصح منه لساناً وأقوى بياناً؛ فآتاه سؤله، وأرسله معه زيادة في المنة ومضاعفة للإحسان، وليكون عوناً له من الحجاج وتحمل أعباء الرسالة، وخافا أن يبطش بهما فرعون وجنوده وأن يقتلوا موسى بالقبطي الذي سبق أن قتله؛ فقال تعالى: ﴿**لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى**﴾ [طه: ٤٦]، وجعل لهما سلطاناً تقوم به الحجة، وتنخلع به قلوب الجبارين، وتمتلىء

بالضعف والوهن من حجاج عقلي في الربوبية بهر فرعون وقطع عليه طريق الجدال، ومِنْ يَدٍ إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها خرجت بيضاء للناظرين، ومن عصا إذا ألقاها صارت حيَّة تسعى حقّاً لا سحراً قد أبطل الله لها كيد الساحرين.

وبهٰذا وغيره مما أيده الله به ثبت في ميدان الدعوة إلى الله ثبات واثق بربه، مؤمن بما يدعو إليه من الهدى والنور، وتجلى في حجاجه صولة الحق، وأحسَّ من نفسه بالعزة والقوة، وبذٰلك أيضاً ذل جبروت فرعون، وتلاشى عنده تألهه وتعاليه.

﴿**قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جئتك بشيء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين...**﴾ الآيات [الشعراء: ٢٣ ـ ٣٣].

وقال تعالى: ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً . قال لقد علمت ما أنزل هٰؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني أظنك يا فرعون مثبوراً**﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢].

ولم يعد فرعون يملك لموسى من الكيد إلا أن يرعد ويبرق ويموِّه و يخدع، ﴿**وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن**

يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ [غافر: ٢٦]، ولم يكن ليأخذ على يديه أحد من الحاضرين، ولا هناك من الأسباب العادية ما يمنعه أن يبطش بموسى؛ فإن الدولة دولته والجنود جنوده، لٰكنها عناية الله برسوله وما آتاه من آيات وسلطان قد بهر فرعون وقطع نياط قلبه، ولم يملك أيضاً ملأ فرعون وزبانيته سوى أن يثيروا حفيظته ويغروه بموسى ومن آمن به، **﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنُقَتِّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾** [الأعراف: ١٢٧].

من هٰذا يتبين للعاقل أن موسى وهو وحيد غريب وقومه مستعبدون لم يقف هٰذا الموقف من فرعون وملئه والدولة دولتهم؛ إلا وهو مؤيد من ربه، صادق في دعوته أنَّ هٰذا لهو الحق المبين.

ثانياً: جرت سنة الله العادلة أن يفتح بالحق بين رسله ومن كذب بهم من الأمم؛ فينصر رسله ومن سار سيرتهم ويجعلهم خلفاء في الأرض، ويهلك من كذبهم وانحرف عن طريقتهم ليكون ذٰلك من آيات الله التي يفصل بها بين الصادق والكاذب والحق والباطل والشريعة العادلة والقوانين الجائرة.

﴿وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ [القصص: ٣٧].

وقال تعالى: **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾** [غافر: ٥١]

وقال: **﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله**

يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعـد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].

وهٰـذا هو الـذي انتهى به أمـر موسى ومن آمن به وفرعون ومن استهواه، **﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمِّ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾** [القصص: ٤٠].

وقال: **﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرقٍ كالطود العظيم . وأزلفنا ثَمَّ الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن في ذٰلك لآية﴾** [الشعراء: ٦٣ - ٦٧].

فانـظر كيف اتحدت وسيلة الإنجاء للأولياء والإهلاك للأعداء! إنها آية الله الباهرة، وقدرته القاهرة، نجى موسى ومن آمن به بما جعله هلاكـاً لفرعون وجنده، هٰذا إلى جانب انفلاق البحر اثني عشر طريقاً وتماسك مائه وخروجه عن طبيعة السيلان بضربة عصا.

وفي قصص موسى سوى ذٰلك من الآيات ما يبهر العقول، ويأخذ بمجامع القلوب، ولا يدع مجالاً للريب ولا قولاً لقائل إلا من سفه نفسه وسعى في هلاكها، والله الهادي إلى سواء السبيل.

كتبه

عبد الرزاق عفيفي

* * * * *

الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله

الحلقة الأولى:

يختلف حال الداعية في استدلاله باختلاف حال من يسأله عن قضية أو يحاجه فيها؛ فقد يكون مقرّاً بأصول تلك القضية، معترفاً بما يوجب عليه التزامها والعمل بها، فلا يشغل المستدل نفسه بإثبات تلك الأصول وإقامة الحجة عليها، فقد أغناه اعتراف سائله أو خصمه بها عن الاحتجاج عليها، بل يوجه عنايته إلى بيان اقتضاء هٰذه الأصول إثبات دعواه فيما خالفه فيه خصمه ليحمله على موافقته فيها واعتقاده إياها والعمل بها، ومن ذٰلك استدلال الرسل عليهم الصلاة والسلام بما أقر به المشركون من توحيد الربوبية على إثبات ما أنكروه من توحيد الإلٰهية، وقد أرشد الله جلَّ شأنه إلى هٰذا في كثير من آيات القرآن، وهي أدلة عقلية نقلية في وقت واحد، ومن ذٰلك أيضاً احتجاج المسلم على المسلم بقوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩]؛ على حفظ القرآن، وصيانة نصوصه وألفاظه من التحريف والتبديل، وبقائه بلفظه كما نزل ليكون حجة على عباده إلى أن تقوم الساعة، وهٰذا دليل نقلي تقوم به الحجة على من آمن ببقاء ما بين دفتي المصحف إلى

وقت الخصومة، لٰكنه خالف في استمرار حفظه في المستقبل.

وقد يكون السائل شاكياً في أصول ما سأل عنه، طالباً على تلك الأصول أو منكراً لها، حتى إذا ما ثبتت بالحجة؛ ثبت تبعاً لها ما سأل عنه أو أنكره، فيضطر المستدل إلى إثبات هٰذه الأصول بالأدلة العقلية، كالذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه؛ فإن إبراهيم عليه السلام استدل على إثبات الربوبية لله بأنه هو الذي يحيي ويميت، فسلك الكافر في جداله طريق التمويه وادعى لنفسه أنه يحيي ويميت، وقصد معنى سوى الذي قصد إليه إبراهيم عليه السلام في استدلاله، فأتاه إبراهيم عليه السلام بآية أخرى من آيات الربوبية على سبيل المثال، لا يجد الكافر سبيلاً إلى التمويه والمغالطة فيها؛ فقال:

﴿**إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبُهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكفرعون؛ فإنه قال لقومه: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال: ﴿**ما علمت لكم من إلٰهٍ غيري**﴾ [القصص: ٣٨].

وقال: ﴿**يا هامان ابنِ لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب . أسباب السماوات فأطلع إلى إلٰه موسى وإني لأظنه كاذباً**﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وذكر الله في آيات من سورة الشعراء محاجة فرعون لموسى عليه السلام في ربه، وإنكاره عليه أن يتخذ ربّاً سواه، وإقامة موسى الحجة عليه؛ فقال تعالى: ﴿**قال فرعون وما ربُّ العالمين . قال ربُّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم وربُّ آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم**

لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخـذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ [الشعراء : **٢٣ - ٢٩**]؛ فهٰـذا استـدلال عقلي استدل فيه بالأثر على المؤثر، وبالآيات الكونية على بارئها، ولا شك أن ذٰلك مما يدل على اختصاصه تعالى بالربوبية، ويلزم من ذٰلك اختصاصه تعالى بالألوهية.

وكذٰلك منكروا النبوة يستدل عليهم بالمعجزات وخوارق العادات لإثبات النبوة كما هي سنة الله في رسله عليهم الصلاة والسلام؛ فإنه يؤيدهم بالمعجزات التي تدل على صدقهم في دعوى الرسالة وتقوم بها الحجة على أممهم.

وليـس بمجـــدٍ فـي مثــل ذٰلـك الاستـدلال بالنقـول الخبـرية المحضة؛ كقوله تعالى: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ [الإخلاص: ١] في إثبات التـوحيد، وقوله: ﴿**وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً**﴾ [سبأ: ٢٨] في إثبـات الـرسـالة، ولا يكفي في محاجة من ينكر بقاء القرآن محفوظاً منذ نزل إلى زمن المحاجة الاستدلال بقوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩]؛ بل الإثبات بذٰلك مستحيل لما يترتب عليه من الدور السبقي أو التسلسل الممنوع.

والذي يتعين الاستدلال به في مثل ذٰلك الدليل العقلي المحض أو النقلي المتضمن للدليل العقلي؛ كالآيات التي استدل بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام على من حاجه في ربه، والآيات التي استدل بها موسى على فرعون، وكثير من الآيات القرآنية التي استدل بها على البعث والنشور يوم القيامة؛ بل يستدل على إثبات بقاء القرآن محفوظاً إلى يومنا

بنقله نقلاً متواتراً وبكونه معجزة خالدة إلى يوم القيامة، وإليك بيان ذٰلك:

١ ـ أما بيان كونه ضبط من حين نزوله وتتابعه نقلاً متواتراً يفيد القطع واليقين؛ فإن رسول الله ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون له الوحي وغيره، وكان إذا نزلت عليه سورة أو آيات أو آية أو بعض آية أملى ذٰلك على كاتب منهم، فكتبه على ما تيسر له من العسب والحجارة الرقيقة والعظام ونحوها، واستمر ذٰلك حتى أكمل الله دينه وأتم على الأمة الإسلامية نعمته، ومع ذٰلك كان النبي ﷺ يقرأ ما نزل عليه من قراءة تثبتٍ وتفهم ودراسة في الصلاة وغيرها، وكان ينزل عليه جبريل عليهما الصلاة والسلام فيدارسه القرآن في شهر رمضان، واستمر ذٰلك حتى توفاه الله، هٰذا مع عصمته في البلاغ والتشريع.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقرؤون ما نزل من القرآن ويتدارسون فيما بينهم؛ فلا يكادون ينتهون مما تعهدوه بالتلاوة والدراسة من السور أو الآيات إلا وقد حفظوه وفهموه وعملوا به، فجمعوا بذٰلك بين الحفظ والعلم والعمل، يعرف ذٰلك من قرأ في دواوين السنة والسيرة وعلم ما فيهما من الأحاديث والآثار، وكان عنده إلمام بحياة النبي ﷺ وحياة أصحابه رضي الله عنهم، وعرف مدى عنايتهم بحفظ الدين عامة وحفظ القرآن خاصة.

وقد اشتهر بحفظ القرآن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم؛ منهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن

مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وأبو زيد الأنصاري؛ رضي الله عنهم.

ولما كان يوم اليمامة وكثر القتل فيمن كان في جيش المسلمين من القراء لزيادة حرصهم على القتال وحثّ بعضهم بعضاً عليه بكلمة: «يا أهل القرآن!»؛ إثارةً لشعورهم وغيرتهم على الإسلام حتى يتسابقوا إلى القتال نصرةً لدين الله، لما كان ذٰلك؛ اتفق الصحابة رضي الله عنهم على جمع القرآن مما كتب فيه ومن صدور الحفاظ الثقات؛ فتم ذٰلك على أكمل وجه وأحكمه، وكانت الصحف التي جمع فيها عند أبي بكر (خليفة رسول الله) إلى أن توفي، ثم عند عمر أيام خلافته إلى أن توفي؛ رضي الله عنهما، ثم كانت عند بنته حفصة.

وقد علم أن القرآن نزل على سبعة أحرف (أي: لغات)، وكان كل جماعة يقرؤون بحرف منها، فلما تولى عثمان رضي الله عنه الخلافة أشير عليه أن يجمع القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة؛ فأمر رضي الله عنه بذٰلك، وتمت كتابة القرآن على حرف واحد بأيدي القراء الثقات، وقوبل بالصحف التي كانت عند حفصة رضي الله عنها وثبت اتفاقهما، ونسخ منه مصاحف أرسلها إلى عواصم الإمارات الإسلامية بعد أن قرأه على الصحابة بين يديه، فأقروها رضي الله عنهم، واحتفظ بالأصل عنده بالمدينة المنورة، وصار المعتبر عند الصحابة رضي الله عنهم هٰذه المصاحف، وثبت ثبوتاً يوجب اليقين ويفيد القطع بأن ما جمع هو ما نزل على رسول الله ﷺ، واستمر العمل عليها إلى يومنا هٰذا تنقلها كل طبقة من الأمة عمن قبلها كتابة وحفظاً.

وقد بلغ عدد من كتبه وحفظه في كل طبقة حدّاً فوق التواتر الذي لا يبقى معه موضع لريبة، ولا يدع مجالاً لشك في أن ما وصلنا هو ما جمعه أبو بكر الصديق أولاً، ثم عثمان ثانياً؛ رضي الله عنهما.

وهٰذا في إفادة اليقين كالأخبار الكثيرة عن المدن المشهورة في إفادة اليقين بوجودها، ولو لم يكن إجماع الصحابة رضي الله عنهم على أن ما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر وفي المصحف في خلافة عثمان رضي الله عنهما هو القرآن المنزل على النبي ﷺ مفيداً لليقين؛ لما كان هناك ما يفيد اليقين سوى المحسات، ولو لم تكن الأخبار عن حفظ القرآن في صدور قراء المسلمين، وعن كتابتهم إياه مع الإحكام والدقة في الضبط فهماً في جميع الطبقات مفيدة لليقين؛ لما كان هناك أخبار تفيد اليقين، ولو أنَّ إنساناً في عصرنا الحاضر الذي خفت فيه عناية المسلمين بالدين أراد أن يجمع القرآن من أفواه القراء وحفاظ القرآن دون الرجوع إلى ما كتب مخطوطاً أو مطبوعاً أو مسجلاً في أشرطة؛ لوسعه ذٰلـك بيسـر وسهولة؛ فكيف بذٰلك في العصور الإسلامية الزاهرة التي بلغت فيهـا العنـاية بالدين أصوله وفروعه شأواً بعيداً وغاية قصوى في النهوض به في شتى جوانبه وجميع نواحيه؟!

إن الـواقـع لأعـظم بينـة وأقوى شهيد على بقاء القرآن محفوظةً نصوصه من يوم نزل إلى وقتنا.

٢ ــ وأما إثبات بقائه محفوظاً بكونه معجزة خالدة إلى يوم القيامة؛ فإن ما كان به معجزة ودليلاً على نبوة رسول الله ﷺ زمن نزوله عليه لا يزال قائماً؛ فهو لا يزال يتحدى العالم أن يأتوا بمثله في فصاحته وبلاغته

وقـوة أسلوبه وفي أحكام تشريعه وصلاحيته للنهوض بالأمم مع تفاوت طبقاتها واختلاف أحوالها في كل زمان ومكان، وفي قصصه الصادق عن الأمم السابقة وأخباره عن سائر الغيبيات السابقة واللاحقة، ولـم يأت أحد بمثله حتى وقتنا الحاضر مع بعد العهد بنزوله، ومضى أكثر من ثلاثة عشر قرنـاً على ذلـك، ومـع كثرة خصوم الإسلام والمسلمين وشدة مكرهم وكيدهم لهم ودأبهم في العمل للقضاء على هذا الدين، ومع تقدم الناس في العلوم الكـونية والثقـافات المتنوعة، ويأبى الله إلا أن يحفظ دينه ويعلي كلمته ويكتب للقرآن والسنة الصحيحة البقاء؛ لتقوم بذلك الحجة على الناس.

الحلقة الثانية:

عُني إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بالدعوة إلى الإسلام، ووجه جل همه وأعظم عنايته إلى إيضاح التوحيد وبيانه، وإقامة الحجة عليه، فبدأ به وكرر الدعوة، مع اختلاف لهجته في ذلك ليناً وشدة، وذكر أنـواعـاً من الأدلة على التوحيد، وسلك طرقاً شتى في الاستدلال بها عليه؛ إتماماً لإقامة الحجة، وزيادةً في الإعذار إلى الأمة، وأملاً في أن يجـد كلُّ نوع منهـا أو وجـهٌ من وجوه الاستدلال بها منفذاً إلى قلوب جمـاعـة؛ فإن النـاس مختلفـون في مداركهم ومتفاوتون في طبائعهم وأفهامهم قوةً وضعفاً، ليناً وصلابة، وإنصافاً للحق وعناداً وصدوداً عنه، فما يجدي من الأدلة وطرق الاستدلال بها مع طائفة قد لا يؤثر على طائفة أخرى.

وفيما يلي بيان ذلك:

أنكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام على أبيه آزر أن يتخذ أصناماً آلهة، ولم يقرن ذٰلك فيما ذكر الله عنه في سورة «الأنعام» بما يخفف من وطأة الإنكار على نحو ما ذكر الله سبحانه عنه في سورة «مريم»، حيث مهد فيها قبل الإنكار بندائه بقلب الأبوة، ولما أشرك قومه مع أبيه في الحكم؛ كان أشد لهجة وإنكاراً، قال الله تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلالٍ مبين**﴾ [الأنعام: ٧٤]؛ فحكم عليهم بالجهل المبين وعمى البصائر، ذٰلك ليثير عواطفهم ويدفع بهم إلى التفكير فيمن يستحق أن يعبدوه مخلصين له الدين ولا يشركوا به شيئاً، أهو من بيده كل شيء وهو ولي نعمتهم، أم الهياكل الأرضية والسماوية وهي لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً، ولا تغني عنهم من الله شيئاً، ثم عسى أن تجد هٰذه الإثارة من أبيه وقومه قلوباً واعية تحفظ عنه ما يقول، وعقولاً رشيدة تفقه ما سمعت من البلاغ وإحساساً مرهفاً، فتتأثر بذٰلك وتستجيب إلى دعوة الحق، ﴿**إن في ذٰلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾ [قٓ: ٣٧].

بصّر الله عز وجل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالدلائل الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه في ربوبيته وألوهيته؛ فأراه آياته في ملكوت السماوات والأرض ليعلم حقيقة التوحيد أو ليزداد علماً به ويقيناً إلى يقينه، وأرشده إلى وجه الاستدلال بها، وكيف يسلك طريقها في البلاغ أو البيان ومناظرة الخصوم ليفصل بذٰلك بين الحق والباطل ويلزمهم الحجة والبرهان، قال الله تعالى: ﴿**وكذٰلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل**

رأى كوكباً قال هٰذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هٰذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هٰذا ربي هٰذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ [الأنعام : ٧٥ ـ ٧٩] .

كان قوم إبراهيم الخليل صابئة يعبدون الكواكب السيارة، يقيمون لها الهياكل في الأرض من الأحجار ونحوها، وكانوا يعظمونها ويتقربون إليها بالذبائح وغيرها، وكانوا يستغيثون بها ويضرعون إليها؛ فناظرهم عليه السلام في ذٰلك ولم يشأ أن يسلك في هٰذه المناظرة طريق الاستدلال الإيجابي والمباشر على أن الله لا ربَّ غيره ولا إلٰه سواه، بل جعل دعوى قومه وعقيدتهم الشركية موضوع بحثه ونقاشه معهم، وفرضها فرض المستدل لما لا يعتقده، ثم يكر عليه بالنقض والإبطال، ويكشف عن وجه الحق.

فحينما أظلم الليل ورأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام النجم؛ قال: هٰذا ربي؛ فرضاً وتقديراً، أو: أهٰذا ربي؟ فلما غاب عن أعين الناس؛ علم أنه مسخر ليس أمره إليه، بل إلى مدبر حكيم يصرِّفه كيف يشاء، أما الرب فأمره إلى نفسه، بل أمر غيره إليه، وهو دائم لا يحول ولا يزول، بيده مقاليد الأمور، وهو على كل شيء قدير.

ثم انتقل بهم في البحث إلى كوكب آخر، هو في نظرهم ضوء، وفي مرأى أعينهم أكبر حجماً، وهو القمر، فلما رآه طالعاً؛ قال: هٰذا ربي؛ فرضاً منه لذٰلك وتقديراً، أو: أهٰذا ربي؟ فلما ذهب عن أعين

الناظرين؛ تبين أنه ليس بالرب الذي يجب أن تألهه القلوب ويضرع إليه العباد في السراء والضراء، يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويستهدونه فيهديهم إلى سواء السبيل، ولذا قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين.

ثم انتقل بهم إلى معبود آخر لهم أكبر جرماً من النجم ومن القمر، وأعظم ضياءً منهما، وهو الشمس، فلما رأى الشمس بازغة؛ قال: هٰذا ربي، فلما أفلت؛ قال: يا قوم! إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين؛ فاستدل بما يعرض لها من غيرها على أنها مأمورة بأمر ربها، وأنها مدبرة مسخرة بتسخير خالقها.

فإذا كانت هٰذه الكواكب الثلاثة من أرفع الكواكب السيارة شأناً، وأعلى قدراً، وأعم نفعاً عندهم، وقد مضت لوازمها بانتفاء سمات الربوبية والألوهية؛ فما عداها من سائر الكواكب أبعد من أن يكون له حظ ما في الربوبية أو الإلٰهة، وأحرى بنفي ذٰلك عنه واستحالته عليه، ولذا أعلن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في ختام المناظرة براءته مما يزعمون من الشركاء، وأسلم وجهه لله وحده الذي فطر السماوات والأرض، وأبدع خلقهما دون شريك أو ظهير يعينه في ذٰلك، وضمن إعلان النتيجة الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وهٰذا هو معنى لا إلٰه إلا الله؛ فإن ما فيه من البراءة من الشركاء نظير نفي الإلٰهية الحقة عن الشركاء في كلمة التوحيد وما فيه من إسلام وجهه لله نظير الاستثناء في كلمة التوحيد؛ لدلالته على إثبات الإلهية الحقة لله، ومثله

قولـه تعـالى : ﴿**وإذ قال إبـراهيم لأبيـه وقومه إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني فإنه سيهدين**﴾ [الزخرف : ٢٦ ، ٢٧] .

وهٰـذا الضـرب من الاستدلال قد سلك سبيله في المناظرة كثير من العلماء قديماً وحديثاً ، وقد جاء في الكتاب والسنة كثيراً ، لٰكن على منهج العـرب في حديثهم وطـريقتهم في المنـاظـرة والحجاج ؛ فإن رسالة نبينا محمد ﷺ قد بدأت في العرب ، وبلغتهم نزل القرآن على طريق الصناعة المنطقيـة ، حيث يقـولـون في مثـل هٰذا المـوضع إجمالاً : لو كانت هٰذه الكـواكب أربـابـاً أو آلهة ما حالت ولا زالت ، لٰكنها تحول وتزول فليست أرباباً ؛ فإن الله حي دائم لا يحول ولا يزول .

فللداعية إلى الإسلام أن يسلك هٰذه الطريقة ـ طريقة إبراهيم عليه السـلام ـ حسبمـا تقتضيه الحال ، فيتنزل مع مناظره من دعاة الباطل ، ويفرض دعواه واقعة ، ويرتب عليها لوازمها الباطلة وآثارها الفاسدة ، ثم يكر عليها بالنقض والإبطال ، وقد توجب عليه الأحوال والظروف سلوكها والدعوة بها أحياناً ؛ فإن الدعوة إلى الحق كما تكون بتزيينه وذكر محاسنه للتـرغيب فيه واستمـالة النفوس إليه تكون بتشويه الباطل وذكر مساويه ومخازيه تنفيراً منه ؛ ليهرب المبطلون عنه ، وتتفتح قلوبهم للحق فيلتزموه .

هٰذا وقد ذهب جماعة من المفسرين وغيرهم إلى ما تقدم من أن حديث إبـراهيم في شأن الكـواكب مع قومـه كان على سبيل المناظرة والحوار مع المشركين ؛ ليقيم عليهم الحجة لا ليكسب هدى بعد حيرة ، ولا ليستفيد علماً بعد شك ، واختار ذٰلك ابن كثير في «تفسيره» ؛ قال : «والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هٰذا المقام مناظراً لقومه

مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل، وهي الكواكب السبعة المتحيزة. . .»، ثم قال: «وكيف يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه:

﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ [الأنبياء: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى: **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. . .﴾** [النحل: ١٢٠ - ١٢٣].

وقال: **﴿إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾** [الأنعام: ١٦١].

ثم استدل بنصوص خلق الناس على الفطرة السليمة؛ كقوله تعالى:

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ [الروم: ٣٠].

وحديث: «كل مولود يولد على الفطرة. . .»[1].

والحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء»[2].

---

(١) أخرجه: البخاري (٣ / ٢١٩٣ / رقم ١٣٥٨)، ومسلم (٤ / ٢٠٤٧ / رقم ٢٦٥٨)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤ / ٢١٩٧ / رقم ٢٨٦٥) عن عياض بن حمار رضي الله عنه.

ثم قال: «فإذا كان هٰذا في حق سائر الخليقة؛ فكيف يكون إبراهيم الخليل ـ الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ـ ناظراً في هٰذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤكد أنه كان في هٰذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً؛ لقوله تعالى: ﴿**وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان. . .**﴾ [الأنعام: ٨٠]» مع تصرف.

ويؤيده أيضاً ما ذكر في مطلع هٰذه الآيات من دعوة إبراهيم لأبيه وقومه إلى التوحيد، وإنكاره ما كانوا عليه من الشرك وعبادة الأصنام التي جعلت تماثيل وهياكل رمزية للكواكب، قال تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين**﴾ [الأنعام: ٧٤]، فبدأت الآيات بالتوحيد والبراءة من الشرك وختمها بذٰلك؛ فدل على أنه كان مؤمناً بذٰلك موقناً به أولاً وآخراً على السواء.

ويؤيده أيضاً قوله تعالى في ختام المحاجة: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم**﴾ [الأنعام: ٨٣].

وروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أن مقام إبراهيم في هٰذه الآيات مقام نظر لا مقام مناظرة، واختاره واستدل عليه بقوله: ﴿**لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين**﴾ [الأنعام: ٧٧]، وذكر محمد بن إسحاق ما يفيد أن ذٰلك حين خرج إبراهيم من السرب الذي ولدته فيه أمه لما خافت عليه من نمرود بن

كنعان» اهـ. باختصار.

وبيان ذٰلك أن إبراهيم كان قبل الرسالة في حيرة في تعيين من يعبده، وإن كان يعتقد بفطرته السليمة أن للعباد ربّاً له قدره وعظمته وجلاله وحكمته في تدبيره وتصريفه لشؤون خلقه، فنظر في السنن الكونية نظرة اعتبار واستدلال لنفسه، نظر في النجم ثم الشمس ليخرج نفسه من القلق والحيرة إلى العلم والهدى والرشاد، فلم يجد فيها سمات الربوبية، ولا الصفات التي يستحق بها أن تؤلَّه وتعبد، وانتهى به نظره واستدلاله لنفسه إلى ما أعلنه أخيراً من البراءة من الشرك والشركاء، والتوجه لله رب العالمين وحده، ثم كان مقام دعوته لأبيه وقومه إلى التوحيد ومناظرته لهم فيما كانوا عليه من الشرك بعد الرسالة.

وعلى هٰذا يستطيع الداعية إلى الإسلام أن يجد لنفسه أيضاً قدوةً حسنةً وأسوةً رشيدةً في سيرة إبراهيم عليه السلام وفي خبر الله عن منهجه في هٰذه الآيات؛ فيبدأ بالنظر في الآيات الكونية والدلائل الشرعية ليعلم الحق في نفسه أولاً، ثم يتبع ذٰلك الدعوة إليه ليكون في دعوته على بينة وبصيرة؛ فعلى كلا المعنيين لهٰذه الآيات يجد الداعية إلى الحق في خليل الرحمٰن مثالاً حسناً يحتذيه، وميزاناً عادلاً يزن به عقيدته وعمله ودعوته ويقتفي أثره فيه.

إن دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه وقومه إلى التوحيد مع سلامتها وقوة استدلاله عليها وحسن سياسته وحكمته واستقامة منهجه فيها لم تجد لديهم قبولاً؛ لأن قلوبهم في غلاف من العناد والصدود واللجاج، فلم تتفتح لدعوة الحق، ولم تشأ أن تتقبلها، ولأن عواطفهم

متبلدة بل ممسوخة، قد انحرف بها الهوى وتقليد الآباء وتحكم العادات السيئة عن الجادة وحدة الاعتدال؛ فلم تتأثر بالحق، ولم تجد لنفسها فيه لذة ولا راحة، بل ذهبوا يجادلونه في الحق بعد ما تبين، ويهددونه ويخوفونه أن تصيبه آلهتهم بسوء فلا يحمد العقبة؛ فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن ثبت على الحق واطمأنت به نفسه وازداد إيماناً به، فأنكر عليهم جدالهم إياه بالباطل وتخويفه من خطر آلهتهم، مع أنها لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً، ولا تدفع عنها بأساً، وهو يركن إلى الركن الركين، ويتوكل على رب العالمين، قد أخلص له قلبه، وأسلم له وجهه، وقام بما أمره به من الدعوة لله الحنيفية السمحة؛ فهو أحق بالأمن والسلام ممن هددوه وخوفوه، لكن على تقدير أن يصيبه مكروه؛ فهو من الله سبحانه ابتلاءً وامتحاناً اقتضته حكمته وعدله، قال الله تعالى: ﴿**وحاجه قومه قال أتحاجونّي في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

فعليكم معشر الدعاة أن تثبتوا على الحق في ميدان الدعوة، وأن تصبروا على الأذى، وألا تنخلع قلوبكم لكيد الكائدين وتهديد المعتدين، وتوكلوا على الله أسوة بخليل الرحمٰن إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ فالله خير حافظاً، وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين.

لما فات إبراهيم عليه السلام أن يؤمن به قومه فتستقر حياته بين أظهرهم ويشتد عضده بهم وتولوه بالأذى، وبلغ بهم الكيد له أن ألقوه في النار، ففر إلى ربه وهاجر طالباً لدعوته قوماً آخرين، لما أصيب بذلك؛ لم يكله الله إلى نفسه، ولم يحرمه جزاء عمله، فوهب له من تقر بهم عينه، وهب له إسحاق ويعقوب، وجعلهما من أنبيائه، وهداهما إلى الصراط المستقيم، وتتابعت النبوة والرسالة من بعده في ذريته إلى أن ختمت بنبوة الرسول الكريم محمد ﷺ.

فيا معشر الدعاة إلى الحق! كونوا واثقين بالله، مطمئنين إلى صادق وعده، مؤملين النصر والخير وحسن العواقب، ولكن لا بدَّ لكم من الابتلاء بالسراء والضراء؛ فاشكروا ربكم على ما أولاكم من الخير، واصبروا على الشدة واللأْوَاء، وليكن لكم في خليل الرحمن وإخوانه الأنبياء خير أسوة؛ فقد ابتلوا فصبروا وشكروا؛ فجزاهم الله خير الجزاء.

قال الله تعالى: **﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾** [البقرة: ١٢٤].

وقال: **﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان لهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾** [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وأصحابه وسلم.

الحلقة الثالثة:

لم يرسل الله تعالى رسولاً إلا أمره بالتوحيد والدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال الله تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد عني الرسل عليهم الصلاة والسلام بذلك؛ فبدؤوا البلاغ بدعوة أممهم إلى أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وقطعوا فيه شوطاً بعيداً حتى شغلوا به الكثير من أوقات البلاغ، ولا عجب في ذلك؛ فإن التوحيد أصل الدين وذروة سنامه وملاك الإسلام ودعامته الأولى، لا تصح من إنسان قربة، ولا يتقبل الله منه عبادة إلا إذا كانت مقرونة بالتوحيد وإخلاص القلب لله وحده.

قال تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفَّار**﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة**﴾ [البينة: ٥].

وقد أرشد الله الناس إلى أيسر الطرق في الدعوة إلى التوحيد وأسهلها وأقربها إلى معرفة الحق وأعدلها، وهو الاستدلال بآيات الله وسننه الكونية وتفرده سبحانه بتصريفها وتدبيرها على تفرده بالإلٰهية واستحقاقه أن يُعبد وحده لا شريك له؛ فذٰلك أهدى سبيلاً وأقوم دليلاً وأقوى في إقناع الخصم وإلزامه الحجة؛ فإنه مقتضى العقل الصريح وموجب الفطرة السليمة.

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]؛ فرتب سبحانه نهيه إياهم عن اتخاذهم شركاء له في العبادة على علمهم وإقرارهم بأنه تعالى وحده هو الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم، وهو الذي جعل الأرض قراراً، وذللها لهم ليمشوا في جوانبها وليبتغوا من فضله، ورفع السماء بلا عمد، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم؛ لينعموا بما آتاهم من النعم، وليتمتعوا بما أفاض عليهم من الخيرات لعلهم يتقون ربهم ووليَّ نعمتهم، فيعبدوه وحده لا شريك له مخلصين له الدين؛ شكراً له على ما أسبغ عليهم من نعمه وأفاض عليهم من بركاته.

وفي القرآن كثير من النظائر لهاتين الآيتين في بيان أسلوب الدعوة ورسم الطريق الناجحة في إقامة الحجة وإلزام الخصم، لقد سلك الأنبياء والمرسلون هٰذه الطريقة في دعوتهم أممهم إلى الهدى ودين الحق؛ اهتداءً بهدى الله، واسترشاداً بإرشاده وهو العليم الحكيم، ومن

أبرزهم في ذٰلك أولوا العزم من الرسل، ومنهم إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام.

أرسل الله جل شأنه خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قوم من الفرس عتاة جبارين يعبدون التماثيل؛ فأنكر عليهم عكوفهم لها وتقربهم إليها، قال تعالى: ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هٰذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون**﴾ [الأنبياء: ٥١، ٥٢].

ولما لم يكن لديهم حجة يعتمدون عليها في عبادتهم الأصنام؛ تعللوا لباطلهم بما وجدوا عليه آباءهم من التقرب إلى التماثيل وعبادتهم إياها؛ فألغوا عقولهم، وقلدوا آباءهم على غير هدىً وبصيرة، ﴿**قالوا وجدنا آباءَنا لها عابدين**﴾ [الأنبياء: ٥٣]؛ فسفه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أحلامهم، وحكم عليهم وعلى آبائهم بالحيرة والضلال المبين، ﴿**قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين**﴾ [الأنبياء: ٥٤]، وبين لهم أن التماثيل لا تسمع النداء، ولا تستجيب الدعاء، ولا تملك نفعاً، ولا توقع ضرّاً؛ فلا يليق بعاقل أن يتخذها آلهة مع من فطر السماوات والأرض، وإليه مقاليد الأمور، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، قال: ﴿**قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذٰلك يفعلون**﴾ [الشعراء: ٧٢ ـ ٧٤].

فلما ركبوا رؤوسهم وأبو إلا اللجاج والعناد والعصبية الممقوتة في تقليد الآباء والأجداد؛ أعلن براءته منهم وشدة عداوته لهم ولما يعبدون

من دون الله، ﴿**قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢].

وجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه لا بد له من سلوك طريق آخر عملي في إقامة الحجة؛ ليكون أقوى في الإبانة عن الحق، وأملك في إلزام الخصم، يضطرهم به إلى الاعتراف بما هم فيه من ضلال وظلم وانحراف؛ فأقسم بالله أن يكيد لأصنامهم وهم عنها غائبون، وانتهز فرصة خروجهم من البلد لبعض شأنهم، وذهب إلى آلهتهم خفية لئلا يراه أحد فيصده عن تنفيذ ما أراد، فجعلهم قطعاً صغاراً إلا كبيراً لهم تركه سالماً؛ ليكون له ولهم معه شأن عند التحقيق فيما جرى على أصنامهم، فلما عادوا إلى منازلهم وشاهدوا ما أصيبت به آلهتهم؛﴿**قالوا من فعل هٰذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهمْ يشهدون**﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦١]، فلما حضر مجلسهم؛ أخذوا يقررونه بما صنع بآلهتهم، قالوا: من فعل هٰذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ فأجابهم بنسبة ما حدث إلى من لا يتأتى منه، نسبه إلى كبير التماثيل وهو ـ كما يعلم ويعلمون ـ جماد لا حراك به؛ ذٰلك ليرشدهم إلى مكان الخطأ في عكوفهم على التماثيل عبادة لها وتقرباً إليها، ويصرفهم عنها إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويوحي إليهم بأنه هو الذي كاد لأصنامهم وأنزل بهم ما يكرهون، وقد أكد ذٰلك بأمره إياهم أن يسألوا التماثيل عمن أصابهم بالتكسير والتحطيم إن كانوا يملكون جواباً ﴿**قال بل فعله كبيرهم هٰذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**﴾

[الأنبياء: ٦٣].

وقد نجحت هٰذه الطريقة إلى حد ما، وأوجدت فيهم وعياً؛ فثابوا إلى رشدهم وما كان في أصل فطرهم، واعترفوا بأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم تماثيل لا تملك لنفسها نفعاً ولا تدفع عنها بأساً، وظلموا إبراهيم عليه السلام بصدهم عن دعوته وإعراضهم عما جاءهم به من الآيات البينات على التوحيد وإخلاص العبادة لله رب العالمين، لٰكنهم لم يلبثوا أن ركبوا رؤوسهم ونكصوا على أعقابهم وارتكسوا في حمأة الضلال والحيرة عصبية لما ورثوه عن آبائهم من الشرك والبهتان المبين، قال تعالى: ﴿**فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هٰؤلاء ينطقون**﴾ [الأنبياء: ٦٤-٦٥].

لقد ازداد طريق الحق وضوحاً وبياناً، واستحكمت حلقات الحجة لإبراهيم على أبيه وقومه، وحق له أن يضيق ذرعاً من صدودهم، وأن يتأفف ضجراً من طغيانهم وشركهم، وأن ينكر عليهم ذٰلك إنكاراً صارخاً، ويرميهم بالخبال وإلغاء العقول، قال تعالى: ﴿**قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون**﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧].

لقد أخذت الحمية الجاهلية للباطل من نفوس قوم إبراهيم عليه السلام مأخذاً، وتمكنت منهم العصبية لطاغوت التقليد للآباء والأجداد فيما أصيبوا به من الشرك والانحراف عن الحق حتى ملكت مشاعرهم، ووجهت عقولهم وأفكارهم إلى شر وجهة، وصرفتهم عن الحق المبين

والصراط المستقيم، وزينت لهم أن يتخلصوا من إبراهيم عليه السلام وينزلوا به أشد العقاب؛ انتصاراً لآلهتهم الباطلة، وانتقاماً منه جزاءً له عما صنع لها من تحطيم وتكسير، ويعلم الله أنه ما أراد بذلك إلا الخير لهم، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ﴿**قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين**﴾ [الأنبياء: ٦٨]، لكن يأبى الله إلا أن ينصر رسوله خليله إبراهيم عليه السلام، وأن يخذل أعداءه وأعداء دينه، ويبطل ما كادوا به لأوليائه فيبوؤا بالخسران المبين؛ إمضاءً لسنته العادلة الحكيمة في أوليائه وأعدائه.

قال تعالى: ﴿**قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلًّا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين**﴾[الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٣].

وقال تعالى: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى: ﴿**سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾ [الفتح: ٢٣].

والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

كتبه

عبد الرزاق عفيفي

الفهرس

الموضوع	الصفحة